كتاب البلاغ
الأدبي
- 1 -

عنترة هذا الزمان

قصص قصيرة

بقلم : عبدالمجيد الشوادفي

إهداء

إلى كل أفراد أسرتي أهدي عمل لم
أعرضه عليهم ليكون مفاجأتي لهم،
راجيا أن ينال قبول الله ، ثم قبولهم.

المؤلف



مقدمة

الشوادفى ...

صوت روائى جديد

بقلم الروائى الأستاذ :

فخرى فايد

فاجأنى الصديق الأستاذ عبدالمجيد الشوادفى بمجموعته القصصية هذه " عنزة هذا الزمان "، ووجه المفاجأة فى الأمر هو أننى قد عرفت " الشوادفى " كاتبا صحفيا متميزا بين أقرانه بحبه الشديد لكتابة العمود الصحفى ، و لكننى لم أعرف عنه أنه يكتب القصة القصيرة أو الرواية .

و حين دفع إلى بهذه المجموعة القصصية ، ثم ألحقها بروايته القصيرة " طريق الغربة " ، عرفت أننى أمام روائى له سماته التى تميزه عن غيره من الأصوات الروائية المعروفة ، و التى سبقته ، لقد وضح لى منذ قرات الورقات الأولى أن " الشوادفى " يكتب منذ زمن بعيد ، و هذا ماأكده لى حين صارحته برأيى ، و هو يقول على حياء :

ـ لقد كنت أكتب لنفسى مواقف أراها تحدث من حولى و لا تصلح لها المعالجة الصحفية ، لأنها حكاية ، هى موقف

روائى كنت أتعرض له من حين لحين فى مكتبى ، و فى الطريق ، و فى البيت ، ثم أجلس بلا عمد لأسجل ما رأيت بعد أن أدخل عليها ما يجعلها أقرب للتصديق لدى القارئ فكثيرا ما يتفوق الواقع على أشد الأفكار جنوحا و خيالية.

إننى لا أريد أن أصادر فكر القارئ بأحكام مسبقة عن الفن القصصى عند عبدالمجيد الشوادفى ، و لقد قلت له بعد أن إنتهيت من قراءة مجموعتيه :

ـ إنك فى غير حاجة إلى التقديم ، أو التبرير فإن أعمالك أكثر جدارة على تقديم نفسها من أى كلمات تقدمها .

كل ما أريد أن أؤكده للقارئ أن " عبدالمجيد الشوادفى " يجب أن يستمر و يواصل الكتابة الروائية ، بعدما قطع فيها شوطا مرموقا ، فهو مكسب حقيقى للقصة و الرواية ، راجيا

ألا تأخذه الصحافة كما أخذت غيره مـن المواهـب الأدبيـة ، إلى فم المطبعة التى لا تكتفى و لا تشبع مـن إلتهـام كتابـات الصحفيين.

القاهرة فى شهر مارس ١٩٩٤

عنترة
هذا
الزمان

كان عنترة بن شداد فارسا مغوارا ظلت الأجيال العربية تتناقل بطولاته ، و تتغنى بفروسيته على مدى العصور ، وكيف كان ينزل العقاب بالظالمين ، و ينتصر للضعفاء والمظلومين ، و هو شبيه في عصرنا الحديث للشخصية الأسطورية التي إبتكرها الروائي الفرنسي موريس لبلان بإسم أرسين لوبين ، و لقد كان " خضري " من أشد عشاق شخصية عنترة ، و إذا أردنا أن نبين له أن هناك شخصيات شبيهة في الأدب الأوربي ، يشيح بيديه محتجا و هو يقول:

– الفارق كبير كبير ، و هل لعنترة من منازل ، أرسين لص ظريف ، و هو يقتنص للفقراء من الأغنياء بالسرقة ، أما عنترة بن شداد ، فهو بلا فخر مقدام مواجه ، لا يخشى في الحق لومة لائم !

كان " خضيري " موظفا بسيطا بأرشيف إحدى الوزارات، و كان من الموظفين الإنطوائيين ، فهو قليل الكلام صامت في ترقب ، يتابع ما حوله في رصد واع ، و لقد رأى

فى زميله بالمكتب " الأستاذ جابر " شخصا فذا قويا يتحدث بصوت مرتفع واضح ، و يستفد من أمامه حتى يستخرج منه حقيقة مشاعره تجاه الإدارة ، بلا خوف أو إلتـواء ، كما أنه يواجـه الجميـع برأيـه فـى قيادات العمـل ، مـن مديريـن ، ورؤساء أقسـام ، و لـو إقتضـى الأمـر منـه أن يهـاجم وكيـل الوزارة شخصيا ، أو حتى الوزير لهاجمـه بلا رحمة ، و بـدون خـوف ، حتى تأكـدت داخـل " خضيرى " قناعة كاملة بأن " جابر " هو عنترة هـذا الزمـان: و لم لا وهـو يدخـل مكتـب المدير العام صاخبا ، و يختفـى وراء البـاب الضخـم بالدقـائق الطوال ، يناقشه فى مظالم العباد دون تهيب ، و بلا خوف .

و كثيرا ما كان " خضيرى " يعقد المقارنة بينه، و بين جابر المقدام، فيتخيل نفسه و قد إستدعاه السيد المدير العام، فكان جلده يصاب بقشعريرة شـديدة، و تتوتـر أعصابـه، و تصيبـه رعدة تكاد تسلمه لنوبة من المرض ، ولم لا، و هو مـن يقـف شعر رأسه من شدة الهـول و الرهـب كلمـا رأى سيادته يمـر بطرقـات الوزارة ، اتـراه يستطيع أن يقف أمامه وجها لوجه،

و يحادثه : مصيبة ، و أية مصيبة تكون ؟.!

و هكذا مرت سنوات الزمالة ، إلى أن أعلنت كشوف العلاوات و الترقيات ، و لاحظ الجميع أنه قد تم تخطى جابر في الترقية فيمن هم أقل منه جرأة و إقداما ، بل لقد نال تقدير ضعيف عن أدائه في العمل ، و هو مخالف لكل ما تعود أن يناله جابر عبر السنوات الماضيات .

مصمص الجميع شفاههم ، و قالوا :

– لقد ظلم جابر ، و كيف يظلم و هو الذى لا يكف عن مواجهة المدير العام ؟ .!

بينما رأى خضيرى أنه قد حان وقت النزال و القتال بين عنترة و المدير العام الظالم ، و ياله من صدام مروع سوف يجعل من المدير العام أضحوكة الجميع بالوزارة .!!
و على غير العادة تأخر حضور جابر لدقائق ، و في الواقع

هو تأخر المترقبين المتحفزين لرؤية ما سوف يحدث حين يعرف جابر بما حاق به من ظلم ، و أخيرا جاء جابر ، و ران صمت عميق على المكان ، صمت ثقيل مترقب لتطور الأحداث ، وتنهد خضيرى بعمق متنهدا و قال :

ـ آه لقد حان وقت النزال ، و صلصلة النصال . !!

نظر جابر طويلا إلى لوحة الإعلان، و راح يحدق فى بلاهة فى الكلمات و حين أدرك ما جرى، إنتفخت شدقاه، واحمرت عيناه، ثم صرخ بصوت هز خضيرى هزا و أزه أزا :

ـ يا للمظالم التى ترتكب فى هذه الوزارة ، لا ليس جابر من يفعل به هذا . !!

ثم إندفع إلى حجرة سكرتارية المدير العام ، و إندفع الموظفون وراءه متجمهرين يترقبون فى تحفز ، و أعلن جابر للسكرتير فى صوت مدوى :

ـ أخبر المدير العام بأننى أريد لقائه .

: آه تريد النزال يا فارس الفرسان ، جاءت لحظتك أخيرا

يا فارس الفرسان ، يا عنترة هذا الزمان .

دخل السكرتير و غاب طويلا ، لا بد و أن المدير العام يعض بنان الندم على ما فعل مع عنترة ، و حين خرج السكرتير لم تكن تظهر مخاوف سيده المدير العام على وجهه ، و حتى لم يعر عنترة أى إهتمام ، بل لقد إلتفت ناحيته هو خضيرى و قال له :

– السيد المدير العام يريدك أن تدخل إليه و معك ملف الغياب .

إرتعد خضيرى بقوة : آه .. إنه يريد أن ينفث فيك غضبه، و يجعلك إمثولة حتى يخيف جابر، أو لعلك تلفظت يا خضيرى بكلمة مجاملة أو تأييد لجابر؟ .. و يلى .. يا ويلى.

بيد مرتعدة حمل خضيرى دفتر الغياب و إتجه إلى مكتب المدير العام و قدميه لا تقدران على حمل جسده ، طرق

الباب ثم دفعـه بكل قوته و دخل ، فى بطأ يحبو و لا يمشـى، فقدميه فيهما أطنان من الحجارة تثقلهما ، و تمنعه من القـدرة على الحركة بسهولة و يسر ، مع دخوله أنقذه الرحمن الرحيم من المواجهة ، فرن جرس التليفون فى تتابع ، و عاجله السيد المدير العام بإشارة من يده ألزمته مكانـه ، ثـم أشـار إليـه بما معناه إجلس بعيدا بجوار الباب .

تخير خضيرى كرسيا خلف الباب مباشرة حتـى يكـون فـى مـأمن بعيـدا عـن منـال السـيد المديـر العـام إذا مـا فكـر فـى إستخـدام يديه ، و حـين إسـتدار السـيد المديـر العـام ليضـع سماعة التليفون بعد أن إنتهـى مـن الكـلام ، عـاد رب العبـاد الرحمن الرحيم ينقذه ، فلقد إنفتح بـاب المكتب بسـرعة حتى كاد يلطمه فى وجهـه، و إندفـع مـن وراءه جـابر: يـا لحسـن طالعك يا خضيرى، سوف تشهد النزال للمرة الأولى حقيقـة واقعة أمامك رؤيا العـين ، و ليـس كلمـات تـروى و تحكـى، سـوى عنـترة هذا الزمان يعاجل الظالم بالطعنات و اللكمات

والركلات.

إندفع جابر كالطود ، رهيبا ، عملاقـا ، اسـطوريا ، يتقـافز مسرعا إلى مكتب الظالم ، و بدلا من أن يتوقف بإحترام أمـام مكتب السيد المدير العام ـ كما يفعـل الجميـع ـ إستـمر فـى إندفاعه ليجذب المدير العام من وراء مكتب الظلم ، وحـوم عنترة هذا الزمان ثم إنقض كالنسر الكاسـر علـى الفريسـة ، وبدلا من أن تمتد مخالبه إلى رقبـة الظـالم لتجـره جـرا ، إذا بـه ينهـار علـى الأرض تحـت قدمـى السـيد المديـر العـام ، و إذا بصوته يخرج باكيا نائحا كأصوات النساء فى الجنائز :

ـ أرجـوك لا تفعـــل هـذا بخـادمك المخلـص الـذى ينقـل إليك كـل أخبـار العـاملـي ن، عينك المخلصة على الجميـع ، من أجـل الأطفـال لا تمنـع عنـى الترقيـة ، أرجـوك ، أتوسـل إليك ، أقبل قدميك .

نهض خضيرى ، لملم أعضاؤه ، و خرج يعدو من الحجرة مذهولا يصرخ فى كل من يقابله :

ـ عنترة مات .. عنترة مات .

سهير
إسمها
راويـة

كانت الراقصة المشهورة سهير سلامة فـى رحلـة فنيـة إلى العريش للمشاركة فى حفل كبير ، هناك .

و كما إعتاد العاملين فـى الحقـل الفنـى ، رافقهـا والدهـا كالعادة المتبعة منذ بـدء ظهورهـا فـى الحيـاة الفنيـة ، فهـو لا يتركهـا تتحـرك بدونـه ، و يلازمهـا كظلهـا فـى كـل خطـوة تخطوها ، و هى سعيدة بما يفعله الأب لا تشكو ، و لا تتذمر، و لكن هذه المرة لم تكن كسابقتها مـن المـرات ، فلقـد بـدت الجفوة بين الأب و الإبنة ، و كان من السهل على الموجودين بالطائرة أن يلاحظوا ذلك .

..و هذا الخـلاف كغيره مـن الأحـداث ، كـانت أسبابه كغيره مما تلوكه الألسن معروفة تماما ، و مشاعة ، فأهل الفـن لهم من الأنوف ما يستطيعون دسه فى كل إتجاه سعيا وراء أية حكايات أو نميمة ، هو وسط له خاصيته ، و لأفـراده قـدرة غريبـــة عـلى التقصى، و البحث، ثم إعمال اللسان بالحكى

بعد التطويل و التحابيش اللازمة !.

و مما عرفوه أن سهير قد وقعت فى هـوى ذلـك المتصابى ممثل المسلسلات التليفزيونية ، و ليـس غريبـا أن تحـب إمرأة رجلا فما بالكم و هو من ذات الفئة ، أو كما قالوا فى هـذا الحب مستحسنين " جحا أولى بلحـم ثوره " ، و لكـن جحـا هذا عرفت عنه زيجاته الكثيرة ، و تقلبه بين الحسناوات الذى جعل عدد مطلقاته أكثر من ثمانية نساء ، جردهـن جميعـا مـن أموالهن و حليهن !!.

هو إذن صياد ثروات ، و سهير قد جمعت مـن الثروة مـا يجعلها فى مقدمة الأثرياء داخـل الوسـط ، كمـا عـرف عنهـا حسـن السـمعة و عـدم إنغماسـها فـى المغامرات الليليـة أو العاطفية ، و حين يرمى صاحبنـا بشـباكه حولهـا ، فهـى دون شك خطة أحكم تدبيرها ، ليتمتـع بثروة الراقصـة المسـكينة وحيدة أبيها !.

و من هنا كان رفض الأب لهذه العلاقة قاطعا ، بل لقد أعلن مقاومته لها حتى و إن كانت مجرد نزوة ، و حين وجد مقاومة بلهاء و عنيفة من إبنته ، أصابته لوثة ، و أعلن أنه سوف يقتل الحبيب و الحبيبة لو إقتضى الأمر ، و هنا فزع الحبيب و إنسحب مبتعدا ، و هو ما جعل سهير تشعر بجرح عميق لأنها بدت غير مرغوبة ، فتقدمت هى لتصل ما يريد الفتى المتصابى قطعه ، و ظل الأب يلاحقها بالتدخل ، والمنع، حتى صار الأمر بينهما كأسوأ ما يكون.

..و لقد حاول أهل الخير من العازفين بالفرقة الموسيقية للراقصة المشهورة أن يصلحوا بين الأب و الإبنة ، و لكنهم لم يفلحوا ، فلقد تشبث كل طرف برأيه : سهير قالت .. لا تنازل عن حبيب القلب ؛ و الأب قال .. الموت أهون من حدوث هذا الزواج .

أما الخبثاء فقالوا : و كيف للأب أن يوافق ، و يترك

الفرخة التى تبيض لـه ذهبا ، فهو يتولى جمع الأموال من عملها كل ليلة بكباريه الفن ، و من الأفراح التى تدعى للرقص بها ، و لا يقل عددها فى الليلة الواحدة عن ثلاثة أفراح ، أى عشرة آلاف جنيه بالتمام و الكمال لا تنقص ولكنها قد تزيد !.

و حين وصلت الطائرة إلى مطار العريش نزلت سهير محاطة بأفراد الفرقة ، و بالمعجبين من الفتيان و الشبان الذين كانوا ينادونها فى فرحة و حب ، أما الأب فلقد إنشغل كعادته بمتابعة شحن حقائب الملبس إلى الفندق ، فهو مطمئن كل الإطمئنان على سلامة إبنته ، فالحبيب هناك بالقاهرة على بعد مئات من الكيلو مترات .

فى المساء ..

سطعت الأضواء ، و أعلن المذيع الداخلى للحفل عن ظهور نجمة الجماهير ، و حبيبة الملايين ، سهير سلامة ، وإلتهبت الأكف بالتصفيق ، و خرجت سهير متألقة تتمايل

على صوت الموسيقى ، و حين سددت بصرها إلى المتفرجين ، تتأمل الصالة إنتابتها دهشـة ، و برقـت عيناهـا بالإستحسـان والإبتهاج لرؤية المئـات مـن نسـاء العريـش بزيهـن المزركـش الجميل ، و رقصت سهير كمـا لم ترقـص مـن قبـل ، و إشـتد حماسها ، فنزلت من على خشبة المسرح إلى الصالة ترقص بين الآلاف ، من الذين ألهب حماسها حماستهم فإنطلقوا يصفقـون لها فـى تمـايل مـع إيقاعـات اللحـن حتـى صـار المكـان يضـج بالتصفيق و يموج بالحرارة و النشوة .

و حـين تـوجهـت سهير لـتصعـد ثـانيـة إلى خشبة المسرح تعثرت فجأة و سقطت لترتطم رأسـها بالحافـة الخشبية ، ثـم ترنحت ، و وقعت على الأرض ، و هنـا تصـاعدت صرخـات الموجودين فى رعـب ، و أحـاطوا بهـا قلقـين ، و لكـن الأب راح يدفعهم عنها فى قسوة وخوف ، ثم إنحنى يحملهـا و هـو يردد إسمها فى حنان و قلق .

من بين الموجودين ظهر طبيب مدد جسد سهير على خشبة المسرح و راح يجرى لها تنفسا صناعيا ، و سرعان ما وصل صوت عربة الإسعاف ، و تقدم رجالها يحملون سهير بين مئات المحبين الذين إنسالت دموعهم حزنا على محبوبتهم والنقالة تتحرك بها إلى حيث وقفت عربة الإسعاف متحفزة لإلتقاطها و الإنطلاق إلى مستشفى المدينة، و يصر الأب على مصاحبة إبنته ، و تنطلق سيارة الشرطة تطلق بوقها، وبعض من الصبية و المتأثرين بالمشهد يسعون حثيثا إلى حيث تتجه.

و يسرع الطبيب الشاب الموجود بالإستقبال إلى فحص سهير و هو فى غاية الإرتباك ، فالمريضة شخصية هامة و هو قليل الخبرة ، و بعد محاولات تفيق سهير ، و تطلب مغادرة المستشفى إلى الفندق ، و يرافقها والدها ، و بعض من أثرياء المدينة الذين حضروا بسياراتهم للإطمئنان عليها و يصر أحد الوجهاء على أن يقلها و والدها بسيارته .

فى الصباح ، تمر مجموعة الفنانين على سهير بحجرتها ويخبروها بأنهم سوف يذهبون للسباحة بشاطئ النخيل ، وهنا تنشط سهير ، و ترتدى ملابسها ، و ترافقهم .

و على الشاطئ الجميل تأخذهم الطبيعة بجمالها فيتقافز الجميع فى مرح طفولى ، و يندفعون إلى أحضان البحر يسبحون و يصخبون ، حتى والد سهير إستجاب لإلحاحهم ونزل معهم إلى الماء ، بينما جلست سهير على جزع نخلة شاردة تتأمل ما حولها فى عدم فهم ، و شعور بالغربة يملأ كيانها تجاه المجموعة اللاهية بعيدا عنها ، حتى ذلك الرجل الذى لا يكف عن مناداتها بيا إبنتى هى لا تعرفه أيضا ، و لا تعرف سببا لمناداته الدائمة لها بيابنتى ، هو غريب عنها و حتى حديثه معها عن الرجل المخادع الذى يريد سرقة مالها لا تجد له سببا فهى لا تعرف رجالا ، و لا تذكر شيئا مما يقول ، و لقد رأت ملامح الفرح طاغية على وجه الرجل العجوز حين سمع منها ما أكد له أنه واهم فى ظنه ، و أنها لا

تريد رجلا ، و لا تبحث عن زوج .

و لقد لاحظ الجميع إنبساط وجه والد سهير مما جعلهم يطلبون إلى دلال أن تسأله فى ميوعة كعادتها كلما كان لها مطلب عنده :

ـ قل لى يا قمر ما سر الإبتسامة الجميله و السعادة التى أراك عليها الأن ، و لم أرها منك منذ شهور .

و يضحك الرجل ويقول :

ـ لقد قررت سهير أن تهجر زئر النساء .

و تعود دلال بالخبر للمجموعة ، و لكن بعد أن تعهد لها الأب بدعوتها إلى وليمة غداء فاخرة ، و عامرة بأنواع المشروبات و المأكولات !.

و كأنما كان سؤال دلال للأب تنبيها له إلى أنه قد غفل عن مراقبة إبنته وتركها وحيدة على الشاطئ ، فيخرج من الماء يعدو ، و حين يصل إلى البقعة التى تركها فيها ، لا يجدها، وتنتابه حالة هياج شديد فيصرخ فى الذين يلهون

داخل البحر :

ــ أغيثونى ، سهير إختفت .

و يسرع الجميع بالخروج من الماء ملتفين حول الرجل فى تساؤل ، ثم منتشرين على مدى الشاطئ الكبير بحثا عن سهير .

كان بحثهم قلق ، و كانت علامات الخوف تعتلى الوجوه كل الوجوه ، فإن سهير ليست فقط مصدر رزقهم الذى يتعيشون من وراء عملها، و لكنها حبيبة، هى لهم أسرة وعالم من البذل و الحب ، لم يجده أحدهم فى الحياة الفنية إلا فيها ، هى تعطيهم ما يزيد عن أجورهم ، و إذا مرض أحدهم ، وإنقطع عن العمل لا تقطع عنه أجره ، و لا حتى نقود البقشيش ، و ليس هذا فقط ، بل هى تقف بجانبهم فى أية محنة قد يتعرض لها أحدهم ، تمدهم بالمال و التوصيات ، و لا تنقطع عن السؤال حتى يأتى ا لله بالفرج ، هى إمرأة تفوق مليون رجل .

و تتساقط دموع على الوجوه ، بمجرد أن يطوف بالخاطر طائف يقول بأن سهير قد يكون لحقها سوء !!

و حين يأتى الليل و سهير لم يظهر لها أثر، و الأب من حال اليأس، إلى حال الشك ، يبكيها تارة، و يسخط عليها تارة أخرى حين يلتف حول فكره الشك يهيجه فيصرخ ملتاثا.

ـ هى قد هربت لتتزوج ذالك المتصابى .

يقرر منظم الحفل إخلاء لمسئوليته ، أن يبلغ شرطة المدينة بإختفاء الراقصة المشهورة سهير سلامة .

و تطير التليفونات الخبر ، و تموج العريش بعشرات الصحفيين و قد أرسلتهم صحفهم و مجلاتهم بحثا عن الإثارة، و متابعة لحدث يهم ملايين من عشاق فن سهير .

و يبدأ تحقيق الشرطة ، و تبدأ المفاجآت فى الظهور ،

وكانت أضخم هذه المفاجآت الحقيقة التى أعلنها الأب بأن سهير ليست إبنته ، و هى إبنة متبناه عثر عليها فى شوارع مدينة الزقازيق حيث كان يقيم و يعمل أيام حرب عام ١٩٦٧، و أن إسمها الحقيقى كما قالت له فى تلك الأيام : راوية .

أصاب إعتراف الأب بحقيقة سهير لغطا كبيرا بين الموجودين بقسم الشرطة ، و إن ظل السؤال بلا إجابة : أين إختفت سهير ؟

كانت سهير تقطع الصحراء فى حركة دائبة ، كانت تسير بقوى خفية ، لقد نظرت حين كانت تجلس على جزع النخلة إلى ما وراء الأبنية الخرسانية ، فأطلت عليها الصحراء برمالها البيضاء الناعمة ، كان المنظر يشدها شدا لكى تقوم وتمشى، و كلما أوغرت فى المسير زادت شوقا و حنينا كانت و كأنها ترى شريطا سينمائيا رأته من قبل عشرات المرات ، فهذه الهضبة تعرفها ، و ذاك الجبل تألفه ، و تلك

الغنيمات التى تجرى هنا و هناك ، هى تأنس لها ، و بدأ قلبها يدق بعنف ، دقات حنين و حب فهذه الحياة هى حياتها الحقيقية ، أما ما كانت فيه فهو امر مصطنع ، أمر دخيل عليها ، وغريب عنها .

عن بعد بعيد كان يجلس أحد الرعيان ، إستوقفتها النغمات الجميلة التى كانت تنساب من الناى الذى يعزف عليه ، وحين إقتربت منه و تكشفت لها ملامحه ، أيقنت أنها سبق أن رأته ، و أنها تعرفه تمام المعرفة ، و بلا وعى نادته :

ـ إبراهيم ، و لد عمى .

نظر إليها الراعى فى عجب شديد ، فهذه الفتاة الجميلة لم يسبق له أن رآها ، و لكن كيف لها أن تعرف إسمه .

و لما جلست الفتاة بجواره ، إبتعد عنها فى حياء ، وتساءلت هى فى دهشة :

– ألا تعرفني يا إبراهيم ، أنا راوية إبنة عمك رشدان.

قال الفتى و هو ينهض غاضبا :

– راوية إبنة عمي ماتت ، قتلتها القنابل و هي ترعى الغنمات .

.. ثم إندفع الفتى يدفع أمامه الغنمات ، و يكاد يهرول لولا مقاومة الأغنام له ، و رأت سهير أن تنهي الموقف وقادتها قدماها إلى دارهم القديمة ، و أمام الباب وجدت سيارة فارهة تقف و قد ربط فرس جميل بمقدمتها ـ ، نادت سهير بكل قوتها :

– أبي .. أبي .

.. أطل شيخ من داخل الدار و قد ملئت عينيه بعبارات التساؤل ، و هنا لم تملك سهير مشاعرها، و إندفعت بكل الحب تحتضن الجسد العجوز باكية تناديه :

ـ أبى رشدان .. أبى أنا راوية إبنتك . . راوية عـادت لدارها يا أبى .

ظـل الشـيخ ذاهـلا للحظـات طـالت ، و لكـن مشـاعره تحركت فى مودة ، و لم يملك نفسه فإحتضن إبنته التى أضناه غيابها ، و إختلطت دموع الأب و الإبنة ، و رأى إبراهيم ما يحدث ، فصرخ متسائلا :

ـ هل هى راوية بحق و حقيق يا عم .

قالت راوية من خلال دموعها :

ـ نعم يا إبراهيم ، أنا راوية إبنة عمـك ، راويـة تـاهت وعادت يا إبراهيم ، أعادنى الله إليكم يا إبراهيـم بعـد سـنين طوال من الغربة .

و ينتبه الشيخ إلى حقيقـة مـا يحـدث، فيسـرع براويـة إلى الداخـل، بعـد أن يؤكـد علـى إبراهيـم أن لا يخـبر أحـدا بمـا حدث .

و تدخل راويـة إلى البيـت لتكتشف أن كل شئ كما هو

تماما كما تركته و هى طفلة ، و بمشاعر الإبنة ، تدرك سهير أن أمها قد ماتت ، و يقول الأب :

ـ لقد ماتت حزنا على إختفائك ، لقد ظلت تدور كل يوم فى الجبل تناديك ، ثم سقطت مريضة ، و لم تكف عن ندائك حتى ماتت ، يرحمها الله .

و بكت سهير و كأن أمها قد ماتت للحظتها، وراح الأب يواسيها :

ـ لقد كانت أمك كل حياتى، و لذلك لم أرض بدخول إمرأة غيرها إلى دارى ، فلن تعوضنى عنها إمرأة غيرها لذا رضيت بالوحدة ، و قلبى يحدثنى بأن الله سوف يرسل إلى من يؤنس وحدتى ، و يعوضنى عن كل سنوات الوحدة.

و ترتمى راوية على صدر الأب و تخرج كلماتها كالقسم:
ـ و أنا لن أفارقك لحظة يا أبى طالما كنت أعيش .

و تقص راوية على الأب قصتها ، و إن أخفت عنه أنها

كانت تعمل راقصة ، و يخرج الأب من خزانة الملابس ، ما كانت الأم ترتديه ، و يترك الحجرة قائلا :

ـ هذه غرفة أمك ، لم يدخلها مخلوق منذ ماتت غيرك الأن ، إلبسى ملابسها هذه ، و فى الصباح سوف اصحبك بالسيارة إلى العريش لتشترى ما تريدين .

عند عودة الفرقة إلى القاهرة ، يتقدم منظم حفل العريش ببلاغ إلى الشرطة متهما الأب القديم بتلفيق قصة من خياله عن سهير ليهرب من مسئولية قتلها ، من أجل أن يستولى على أموالها ، خوفا من أن تتركه لتتزوج ، و يؤيده بعض الموسيقيين ذاكرين أنهم سمعوه و هو يردد إتهامها بالهرب للزواج من الممثل الذى تحبه ن و يؤكدون أنه قال أنه سوف يقتلها لو تزوجته .

و تأمر النيابة بالقبض على الأب الذى يصر على أنه لم يقتل سهير ، و أنها بالقطع موجودة بالعريش ، إن لم تكن مختفية بشقة الممثل المزواج ، و يصدر وكيل النيابة أمران :

الأول بتفتيش شقة الممثل و ضبطه و إحضاره ، و الأمر الثانى سرعة إجراء البحث والإحضار لسهير سلامة .

– سهير الراقصة ..

هكذا صرخت إحدى السيدات فى فرح ، و هى ترى راوية داخل متجر الملابس ، لم تعر سهير الصرخة أى إهتمام فلقد إنقطعت كل صلة لها بالماضى ، و لكن الأب إلتقط الصيحة بإنتباه ، و بذكائه الفطرى عرف ما كانت تخفى إبنته عنه من ماضيها ، و أسرع يدفعها أمامه لتسرع معه بالخروج من المتجر ، و قد ملأه شعور مذل بالعار .

و كانت راوية أسبق من أبيها فى الإختفاء داخل السيارة فهى تعيش فى ظل طفولتها ، التى لم تكن تعرف فيها غير الإستجابة لأوامر الأب و الأم .

إلتقط الشيخ أنفاسه اللاهثة ، و عدل من هندامه ، و هو يستعيد نفسه التى تبددت حسرات ، ثم نزل من السيارة إلى

المتجر ، و فى هدؤ إتجـه للمـرأة التـى صرخـت بمـا صرخـت وهمس فى رجاء :

ـ يا إبنتى هل تعرفين المرأة التى كانت معى بالمتجر؟ .!

قالت المرأة فى ثقة :

ـ نعم أعرفها ، و مـن لا يعـرف يـا عـم نجمـة النجـوم .. سهير الراقصة العالمية .

تساءل الرجل فى هدوء مسيطرا على مشاعره :

ـ هل أنت على ثقة من هذا يا إبنتى ؟ !.

و عادت المرأة تؤكد ما سبق فى إصرار :

ـ لقد كانت ترقـص فـى الحفـل الـذى أقيـم بالمدينـة ، وسقطت على رأسها ، ثـم إختفـت ، و الدنيـا كلهـا تبحـث عنها : ترى هل أخفت عنك حقيقتها .

إرتسم ألم عظيم على وجه الشيخ و قد إستدار عـائدا إلى السيارة ، و عيناه تلتمعان بالشرر .

: أى عار ذاك الذى جاءتك به إبنتك ؟ .. ليتك ما صليت لله داعيا متوسلا أن تعود إليك لتراها قبل مماتك ، ليتك ما فعلت فلقد كان موتها أهون عليك من أن تطاردك بعارها ؛ سبحانك اللهم من حكيم عليم ألست أنت القائل ، و قولك الحق فى قرآنك العظيم

" و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم ، و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم ".. و ها أنت يا شيخ قد أحببت الشر و تبحث الأن عن الخلاص منه ..

ـ أبى ألن تركب السيارة ؟ .

أيقظه صوتها البرئ من إنفعالاته ، فدلف إلى العربة ، وقاتل نفسه بعنف حتى إستطاع أن ينظر إليها فلقد أصبح يكره رؤيتها بشدة ؛ كان و جهها ينطق بالبراءة و الصدق و الطهر ، و حين رأت ذلك البريق الكئيب فى عينيه ، تساءلت فى حنو :

ـ أبى ما بك ، هل أغضبتك فى شئ ؟ .

و لم يملك الأب دموعه من الإنهمار ، و هو يدير رأسه هاربا من مواجهتها ، و أطلق السيارة لتنهب الأرض نهبا ، هو لا يدرى إلى أين ، و لا من أين : هل تراه متجه إلى البحر ليرمى بالسيارة و من فيها إلى عمق مياهه ، و يتخلص من كل شئ ؟..أم هو صاعد إلى قمة الجبل و ملق بها إلى أليم يخلصه مما تموج به نفسه من شعور كئيب بالعار ، لقد عاش حياته كلها بين أهله مرفوع الرأس مهاب الجانب ، لا لشئ إلا لأنه كان شريفا عفيفا لا يخشى في الحق لومة لائم ، أما الأن فلقد جاءت له راوية بالعار.

إلتفت ينظر إليها بطرف عينه ، كانت تجلس بجانبه ساهمة تشع البراءة من قسماتها : يارب هل يعقل أن تكون هذه هى تلك التى تحدثت عنها المرأة ، هل تكون هذه الكتلة من البراءة و الطهر هى .. هى تلك الراقصة التى تتعرى أمام الرجال و النساء ليأكل الجميع لحمها ؟ ! .. محال يارب أن يكون كل ذاك الطهر.. محال !

إنتشرت الشائعة قوية فى المدينة تقول أن سهير قد إختطفها إعرابى عجوز ، و أنها قد إستغاثت بالمرأة التى تعرفت عليها بالمتجر ، و تحرك ضابط المباحث خلف الخيط الذى أشع عليه بقرب الوصول إلى الحقيقة ، فلم يعثر على أية جثث بمياه البحر أو خارجها ، كما لم تصل أية دلائل أخرى تشير من قريب أو بعيد عن أية إحتمالات تكشف سر الراقصة منذ أكثر من اسبوع !

و قال البعض أن سهير لم تختطف ، و لكنها ذهبت بمحض إختيارها لتتزوج من الراعى العجوز نكاية فى الرجل الذى تبناها ، و لتتخلص من تسلطه الكريه عليها !!.

.. و هناك إتجاه ثالث قال بأن سهير قد فقدت الذاكرة ، و أنها لا تدرى من هى ، و لا إلى أين تتجه ، و لا إلى من تلجأ ، و كان هذا هو تفكير الطبقة المثقفة بالمدينة ، و لقد أكده ، و رجحه طبيب المستشفى الذى أجرى عليها الكشف و الفحص !.

أما ضابط المباحث فلم يكن أمامه غير مطلب واحد سمعه من رئيسه ، و من وكيل النيابة :

ـ إحضر سهير ، أو إن لم تكن تحيا هات جثتها ، أو حتى ما يشى بأنه شئ منها .

.. و كان الخيط الوحيد الذى تكشف للضابط ، وتأكد من صدقه و واقعيته : السيارة الفارهة ذات اللون الأسود ، و مالكها شيخ العرب ، و لم يكن عسيرا عليه فى مدينة صغيرة كالعريش أن يعرف لمن السيارة ، و أين مكان إقامة مالكها ، و لذلك صحب معه قوة صغيرة من الجنود ، و إتجه إلى الصحراء قاصدا بيت الشيخ رشدان ، فلقد كان من المتوقع أن يقاوم الشيخ تسليم الراقصة إذا عثر عليها ، و هو أمر ضئيل الإحتمال ، فالشائعات التى تتبعها من قبل لم تأته بحقيقة واحدة تحمل الصدق ، فهى غالبا ما تكون من نسج الخيال ، و ما جعل الأمر موضع شك الضابط الشاب أن يكون الرجل المتهم هو الشيخ رشدان صديقه.

لم يستطع الشيخ رشدان أن يتخذ قرار الخلاص من إبنته راوية فحتى و إن كانت تصطنع البراءة ، فما ذنبها و قد تاهت مع من تاهو أثناء الحرب ، هي لم تعمد إلى الفرار ، و لم تكن تدرى ماذا سيحيك لها القدر ، لا .. بحال هو ليس ذنبها ، و من غير العدل أن تؤخذ بما لم ترتكبه ؟!.

.. و لقد سعد الشيخ بقرار دفن الماضي و الحياة مع إبنته الوحيدة بعيدا عن الدنيا كلها ، بل و هجر القبيلة و الديار لو إستلزم الأمر ذلك ، فراوية صورة من إمرأة أحبها أشد الحب ، و هى الذكرى الوحيدة التى تركتها له قبل أن ترحل و هى الإسم الوحيد الذى ظلت تردده فى حب إلى أن ماتت و توصيه أن لا يكف عن البحث عنها ، و أن يضعها فى عينيه إذا ما وجدها ، أفيعقل أن يقدم هو على قتل كل ذاك الحب؟!.

.. و لكن منظر الجنود الذين أحاطوا ببيته أكد له أنه لن يستقر بحبه فى سلام، و أن عليه أن يختار بين العار ، وبين

إحترام وصية المرأة التى وهبته حياتها ، و لكن ألا تؤمن برحمة ا لله يا شيخ رشدان ، إنه هو سبحانه و تعالى الرحمن الرحيم، و هو من أعاد لك إبنتك بعد عشرين عاما من الأمل، و التوسل و الدعاء ، و هو سبحانه من سيحل لك كل مشاكلك : دعها لله ، و إنهض لتفتح بابك للضابط الشاب ، هو ضيفك .

إتجه الشيخ رشدان إلى الباب ليفتحه ، و هو يقدم رجلا ويؤخر الأخرى ، و ليرحب بالضابط ، فهو كثيرا ما رآه وكثيرا ما أعطاه من علمه بامور أهله ، و ساعده فى الإتجاه بفكره إلى الطريق السليم للوصول إلى حل المشكلات الغامضة التى صادفته ، و لقد أحب الفتى لدماثة خلقه، أفلا يرحب به الأن و قد جاءه فى قضية حلها فى يده هو .

فتح الشيخ رشدان الباب و هش للضابط مرحبا، و على حياء دخل الضابط ، و هو يؤجل الحديث خجلا من أن

يكون فيه ما يجرح مشاعر الرجل الذى كان يشعر بأنه فى مكانة الأب له ، و لكن الشيخ قرر أن يعفيه من تردده ، ومن الحرج ، و نادى على إبنته :

– راوية ، تعالى و حيى صديق أبيك .

.. من داخل البيت أقبلت فتاة حيية رائعة الحسن ترتدى ملابس الإعرابيات ، تمشى على مهل ، و لقد فتنت الملاحة العربية التى تكسو ملامح وجهها قلب الضابط الشاب ، فتسارع وجيبه ، و كان أول إنطباع هو رفضه لأن تكون راوية هى سهير ، أن يكون ذاك الوجه المليح هو هو وجه سهير الذى رآه تكسوه المساحيق ، و رغم هذا ، يظهر الإرهاق واضحا من ورائها .

سلمت راوية فى أدب جم وإنسحبت مسرعة ، لتعد القهوة لضيف أبيها، و رأى الضابط أن ينقل للشيخ كل ما قيل، و ما حدث منذ تولى قضية الراقصة سهير ، وحين إنتهى

من حديثه، و من إرتشاف آخر قطرة فى كوب القهـوة التى صنعتها يدا تلك المليحة ، إبتسم الشيخ راشد وقال :

ـ إن كل ما سمعت هو الحقيقة بعينها يا ولدى ، و هذه الفتاة التى قدمت إليك القهوة هى سهير الراقصة .

و قص الشيخ على الضـابط كـل مـا حـدث ، و أذهلـت الحقيقة خيال الشاب ، و بعد حديث طويل أقنع الشـيخ بـأن تذهب معه راوية إلى المستشفى لتستكمل علاجها ، و تستعيد وعيها ، و أن يكتم عنها ماضيها تماما ، و حين تستعيد قدرتها على إتخاذ القـرار عليهـا أن تقـرر ، و ختـم الضـابط الشـاب كلامه بجملـة غامضـة قالهـا و هـو يصحـب راويـة إلى سـيارة الشرطة التى كانت فى إنتظاره بالخارج :

ـ و على أنا أيضا أن أقرر .

و قبل أن ينطلق الضابط ، طلب مـن الشـيخ رشـدان أن يلحق به فى سيارته ليغلقوا ملف قضية إختفاء الراقصة سـهير

سلامة ، و لقد تساءل الضابط بينه و بين نفسه : ترى كيف ستكون النهاية؟

أمر وكيل النيابة بتحويل " سهير سلامة " للمستشفى لإستكمال العلاج ، كما أمر بإخلاء سبيل الشيخ رشدان من سراى النيابة لأنه لم تثبت عليه أية تهمة ، و أن تبلغ الجهات المختصة بالقاهرة بما تم فى قضية الراقصة المشهورة .

لقد كان منظرا مثيرا للدهشة ، ذلك الذى شهدته مستشفى العريش العام ، بعد أن أعلن الطبيب المعالج ، والذى جاء من القاهرة ، أن المريضة تستطيع الأن أن تتخذ قرارها و هى فى غاية التنبه و الوعى : فلقد وقف الأب الذى تبناها فى جانب ، و وقف الضابط و الأب الحقيقى فى جانب آخر ، و الكل يترقب قرار سهير ، هل ستعود سهير أم سوف تنتمى إلى واقعها الذى إنقطع عنها و إنقطعت عنه سنوات طوال ؟!.

كانت قلوبهم تخفق بعنف ، و قد تعلقت عيونهم بالشفتين الرقيقتين تنتظر قرار من أعلن الطبيب المعالج أنها

اصبحت تستطيع إتخاذ القرار .

.. و أخيرا ، و بعد إنتظار لحظات قصار ، بدت و كأنها سنوات طوال ، تحركت الشفتين ، و قالت الفتاة :

ـ يا بابا سلامة ، أنا لا أستطيع أن أنكر حسن رعايتك لى منذ عثرت على طفلة بلا أهل ، و بلا هوية ، و لكن المشاعر التى فطرنا عليها ا لله تقول : أن الأب هو الأب الذى خرجنا من صلبه ، و لقد شاء ا لله أن أعثر عليه بعد أن كبرت ، فهو من أراد له ا لله أن يكون ملاذى و نسبى ويتولى مسئوليتى ، و لذلك سوف أترك لك كل ما جمعت من مال ، و أبقى هنا بدار أبى رشدان .

و إنسابت الدموع تغسل القلوب و الوجوه ، و إرتمت راوية فى أحضان الشيخ الذى أحس للمرة الأولى منذ رحيل زوجته أنه يعيش بين الأحياء حيا مثلهم .

و فى صدق راح سلامة يقبل يدى راوية و هو يقول:

ـ الأن أستطيع أن أتركك و أنا مطمئن عليك يا إبنتـى، أما مالك فأنت الأحق بـه ، و يكفينـى أنـك وهبتينـى ذلـك الإحســـاس العظيــم بالإبوة و الذى حرمنى ا لله منــه طـوال تلك السنين.

قال الشيخ رشدان فى رحمة :

ـ يا حاج سلامة ، راوية هـى إبنتـك أيضـا ، لكنهـا لـن تعود لحياتها القديمة ، و نحن و الحمد لله فى سعة مـن العيـش و لسنا فى حاجة لذلك المال فهو حلال عليك يكفيك مـدى ما تبقى لك من العمر ، و لكى تحج منــه بإذن ا لله ، و تختـم حياتك كأحسن ما يكـون الختام ، و بيتـى سـيكون مفتوحـا لك، و راوية ستكون معى فى إسـتقبالك فـى رحلـة عودتـك من الحجاز .

و تحرك الشــيخ و وقـد أمسـك بكـف وحيدتـه سـعيدا ، بينما راح الضابط يلاحقه فى تردد ، ثـم أقـدم و همـس فـى أذن الشيخ :

ـ هل تسمح يا حاج رشدان ، أن أكون لك صهـرا ، و تزوجنى إبنتك راوية .

قال الشيخ فى حب :

ـ لا تتعجـل الأمـور يـا ولـدى ، و مـن نـاحيتى فلسـت ممانع فى هذه الزيجة ، و لكن راوية لها رأى .

و نظـر الضـابط إلى تلـك التـى أسـرته مـن النظـرة الأولى ، وإلتقت العيون فى حديث مـودة طويـل ، مـن يـدرى فلعلهـا تطول و تطول لتشمل العمر كله ؟ .



الرحمة

فوق

القانون

فى حركة الترقيات و التنقلات لضباط الشرطة ، و التى صدرت خلال شهر يوليو من عام ١٩٧٧ ، جاء إسم العميد " صدقى فؤاد " ضمن من تقرر نقلهم للعمل بصعيد مصر ، و هى عادة بوليسية تتبع بين كل العاملين بالشرطة المصرية ، فلابد من قضاء سنوات هناك ، وإلا فلا ترقية لرتبة لواء ، و لقد أصاب صدقى غضب شديد حين أبلغ بحركة التنقلات ، فهو أب و مستقر معيشيا منذ سنوات طوال،فى بيت بناه له والده الثرى هدية الزواج ، كما وأنه قد كون فى محافظة الشرقية التى يعمل بها منذ تخرجه ضابطا للمباحث صداقات كثيرة ، و أصبح بفضل دماثة خلقه واحدا من أهل هذه المحافظة التى إشتهر عن أهلها الكرم وحب الغرباء ، و لكن ها هو يطلب منه أن يترك حياته كلها، و أن يترك ما بناه ليذهب غريبا إلى صعيد مصر.

أما " إيناس " زوجته فكانت فرحة غاية الفرح بهذا القرار ، فلقد جاء النقل إلى أسيوط ، حيث توجد بالقرب

منها القرية التى تعيش بها أسرتها و ولد فيها أبوها ، و إيناس لا تنسى أبدا أنها صعيدية إبنة صعيدى ، و كانت دائمة المفاخرة بذلك بين زميلاتها بالمدرسة و الجامعة ، مع أنها لم تر الصعيد طيلة حياتها غير مرات قليلة ، فوالدها درس بالجامعة و عمل بالقاهرة حيث كانت تعيش أسرة زوجته بالسيدة زينب.

كان الوقت مساء حين توقف القطار بمحطة أسيوط ، كانت الإضاءة قوية و كأنه بمحطة مصر بالقاهرة ، حيث كان يبهر بالأضواء التى تغمرها بشدة و تكاد تحيل ليلها إلى نهار مشرق و كان كلما تصادف نزوله إليها فى مأمورية أو فى زيارة خاصة ، لا يخفى إعجابه الشديد بنضام إضاءة المحطة الذى يسهل عمل الأمن ، و كان مبنى المحطة المفاجأة الثانية له ، فهو نظيف و يتسم بالفخامة ، و ليس كما توقع مبنى مهمل تطل القذارة من كل ركن فيه و تتداعى حيطانه تحت القذارة و الإهمال .

و لكن الناس كانوا هم صدمته الكبرى ، فرغم تشابه ملبسهم مع ملبس أهل المحافظة التى كان يعمل بها ، مع إختلاف بسيط فى غطاء الرأس ، إلا أنه شعر بروح العداء فى جهامة ملامحهم ، و بالغلظة تطل من العيون ، و حمد الله كثيرا على أنه أجل حضور زوجته و إبنيه حتى يستقر فى مكان عمله الجديد ، و يجد لهم المسكن المناسب ، و حتى ينتهى ولداه من دراستهم ، فلم يكن من المعقول أن ينتقلا إلى مدرسة جديدة ، و علاقات جديدة ، و هم فى عمرهم الصغير الذى يتسم بالخيال و الإرتباطات العاطفية بالغير ، كما و أن الإمتحانات على الأبواب ، و لكن ترى من يراعى ظروف الآخرين ، و من يهتم ؟

لنهد و إنحنى ليلتقط حقيبته الضخمة التى إمتلأت بملابسه ، و بالأطعمة الجافة التى أصرت " إيناس " على أن تعدها له تحسبا لأى ظرف طارئ ، و لكن يده قبضت على الهواء ، لأن يدا سبقته إليها ، رفع بصره فوجد جنديا لمير

مهندم يقف بجانبه يتأمله فى صمت و قد حمل الحقيبة ، بينما كان هو شاردا تطيح بذهنه الأفكار ، و حين واجهت نظراته الجندى ترك الحقيبة تسقط بعنف و بكل ثقلها على الأرض ، و إعتدل محييا فى عسكرية منضبطة ، فرد تحيته مبتسما لأنه وجد من يهتم بأمره.

و تحرك أمام الجندى متجها إلى حيث أشار له حيث وقفت سيارة جيب ، و فى صمت صعد إلى المقعد الأمامى ، و صعد الجندى ليجلس إلى جواره ليقود السيارة.

كانت شوارع المدينة واسعة و جميلة ، تحمل إليه بشارات خير ، و كان مبنى مديرية الأمن حيث مكتبه كمدير للمباحث مبنى جميل طليت جدرانه باللون الأصفر الفاتح ، و كان يلاصقه مبنى صغير هو إستراحة كبار الضباط ، وتوجه الجندى حاملا الحقيبة إليه ، و هناك إستقبلته مجموعة الضباط الموجودين بالترحاب و وجد من بينهم أحد أفراد

دفعتـه بكليـة الشـرطة ، فتصافحا بحـرارة ، و وعـده بـأن يصحبه فى الصباح إلى السيد مدير الأمن و المساعدين.

نام ليلته قلقا، فهو رغم تعوده على النـوم فـى أى وضـع، أو فى أى مكان، أثناء المأموريات التى كانت تقتضـى منـه ان يواصـل التحـرى والمطـاردة ليـل نهـار، إلا انـه هنـا فـى نـوم الراحة، فلا مجرم يترقب ، و لا مفجاة يتحسب ، ثم إن صور زوجتـه الحبيبـة " ينـاس "، و أولاده، تشـاغل بالـه، فكيـف سيكون حال زوجته و هى تتلمس مكانه بجوارها فى الفـراش فلا تجده، و تتلمس صوته يطمئنها على حسن سير الأمور فلا تسمعه، لابد و أنها سوف تظل ساهرة بلا نوم، و لابـد و أن عاطفتهـا ورقـة مشـاعرها سيطاردانها بالأفكـار والهواجـس، ولقد أخطأ بلا شك حين لم يتكلم إليها تليفونيـا فـور وصولـه إلى أسيوط، ترى هل فعل هذا عامدا لكى يقلقها ؟!

.. نام و الفجر على مشارف الليـل ، و لـذا تركـه زميلـه فتحى نائما و إنصرف إلى عمله بعـد أن تـرك لـه ورقـة ينبأه

بمكانه ، و أنه عند كلمته فى رغبته بأن يقوم بمهمـة التعـارف بينه و بين القيادات الشرطية بالمديرية.

قرأ الورقة مرة و مرتان، و طرد عنه التثـاؤب ، وإرتـدى ملابسه ، و توجه برفقـة جنـدى مـن الموجوديـن بالإسـتراحة ليرشده إلى مكان زميله ، ز ليبدأ أول يوم فى حياته الجديدة.

لم يكن من العسير عليه أن يجد شقة ليستأجرها، و لقد إختـار أن تكون بعيدة عن النيل لما سمعه من قصص حول الحشـرات التى تضج بهـا منـازل السـكان طيلـة شـهور الصيـف، و مـا أطولها شهور فى صعيد مصر كما سمع، كـانت سـقة متسـعة، وكان الشارع هادئا، ولقد وصفها لإيناس وبالغ فى الوصـف والتزيين، وهو يعرف تمام المعرفة أنه لم يطن بحـاجة لأن يـزين لها المكـان فلقد كانت فى غاية الشوق لأن تعيش فيه.

وجـاءت إينـاس و معهـا الولـدان ، و بـدأت مشـاعرها الـدافقـة بالعـاطفة و بالإنتماء إلى المكان ، و إلى أهل المكان ،

تقلقه فى عمله ، فها هى تسمح للنسوة بتقديم تظلماتهم إليها ، فتروح الليل بطوله تطارده بحلو رجائها بأن يعفو ، وأن يخفف ، و أن يتغاضى فهم أهلها ، و هى مقصدهم ، و هو يفهمها بضرورة إلتزامه بالأمانة حتى مع أعز أصحابه، فالقانون لا يفرق بين حبيب و غريب ، الكل سواسية ، و العدالة عمياء حتى لا ترى الوجوه و لا تدرك غير الأدلة و البراهين ، فيكون الحكم عادلا.

..إلى أن كان الصدام الأكبر حين قبض على شاب من قرتها ليلة عرسه، و كانت قد وصلته إخبارية بأنه يتاجر فى المخدرات و يخفى كمية منها تحت سرير العرس، وحين عاد مرهقا آخر الليل لينام وجدها متحفزة فى فراشها ، وما أن بدأ فى خلع ملابسه، حتى بدأت تعاتبه على فعلته، وكيف طاوعه قلبه أن يقتل الفرحة فى قلب الشاب المسكي، و أن يحرم عروس من زوجها فى أجمل ليلة فى عمر البنت، وكيف يكون هو لاعب دور مبدد اللذات و مفرق الأحباب ؟!

و حين إنتهت سألها عن مصدر أخبارها ، فقالت:

ـ لقد جاءتني أمه و دمعها على خدها ، و قالت ان شاب كان منافس له و يريد الزواج من فتاته هو الذي دس له المخدرات ، و بهذا يكون قد إرتكب إثمين القبض على برئ ، و تهديد فرحة قلبين متحابين.

كانت تتكلم بصدق شديد ، فهو يعرف كم هي عاطفية، و كان يتعاطف معها، و لكن ما اغاظه أشد الغيظ أن تستقبل أم متهم في بيته، و لذلك راح يلومها على سئ سلوكها، و كيف ستضعه بذاك السلوك في دائرة الشبهات.!!

بكت بشدة ، و خاصمته ، و لم تعد له طعام العشاء ، ولا أعطته قبلة المساء ، و صبر على مضض ، و نام.

إستيقظ مبكرا ، و تسلل من حجرة نومه حتى لا تشعر إيناس بأنه قد إستيقظ ، و خرج بهدوؤ من البيت ، فهكذا قد

عود إيناس إذا ما أغضبته ، أن يختفى يوم من حياتها فلا تراه، و هنا تدرك أنه غاضب ، و أنها أخطأت فتتصل به فى العمل تصالحه ، و تعتذر.

جلس إلى مكتبه و زملاء العمل لم يحضر أحد منهم بعد ، فطبيعة عملهم تقتضى منهم السهر ، و بالتالى العودة فى اليوم التالى متأخرين ، و ليشغل وقته ، و ليبعد ذهنه عن خصامه مع إيناس ، راح يقلب فى سجل خاص بالهاربين من تنفيذ الأحكام القضائية التى صدرت ضدهم ، و لفتت نظره بشدة حالة رجل إسمه أبو زيد عمران هارب من الحكم بالسجن المؤبد منذ تسعة عشر عاما:

– تسعة عشر عاما و لا يستطيع ضابط مباحث ممن تولوا هذه القضية أن يعثر لك على أثر يا أبو زيد عمران ؟ !

أبو زيد عمران - العمر أربعين عاما ، أى هو الأن يقترب من الستين - التهمة قتل زوجته الشابة ظلما تحت دعوى

الشك فى سوء سلوكها ، بينما التحريات قد أثبتت أن السر وراء مقتلها أنه كان يطمع فى سرقة أموالها .

كتب الإسم فى ورقة صغيرة أمامه ، و سجل بجوارها ملاحظاته ، و قرر أن يبدأ تحرياته فورا ، فإستدعى أنشط جنديين فى الشرطة السرية ، و كلفهم بالبدء فى البحث عن أبو زيد عمران ، و حين جاء الليل ، و هو يواصل عمله و قد عزم على أن لا يعود إلى البيت قبل أن تبدأ هى بالمصالحة، حضر احد الجنديين و ألقى أول مفاجأة فى التحريات ، وكانت أن أبو زيد عمران من سكان القرية التى تعيش فيها أسرة زوجته ، أنه قد إختفى منذ اللحظة التى إرتكب فيها جريمته خوفا من بطش أسرتها ، و أن الحكم قد صدر ضده غيابيا ، أى لم يتبق غير شهور قليلة عليه و يسقط بنص قانون العقوبات ، الذى أسقط الحكم عن المحكوم عليه غيابيا بعد عشرين عاما من صدوره.

: أى مجد ذاك الذى سوف تتوج به لو أنك من دون كل رؤساء المباحث الذين شغلوا هذا المكان قد تمكنت من الإمساك بهذا المجرم.

أيقظه رنين جرس التليفون على مكتبه ، جاءه صوتها حانيا حبيا ، يتساءل عن سر كل هذا التأخير ، فأجابها بأنه ضغط العمل هو السبب فى تأخره ، و فى لهفة راح يجمع كل أوراقه من على المكتب و غادر المكان ، و هو يحلم بليلة صلح تعوضه عن كل ذاك التعب الذى تعبه فى الجرى منذ الصباح وراء ذاك العجوز بلديات إيناس.

قرر أن لا يشغل بال حبيبته بشئ ، أن يتركها للإعتذارات الحلوة تنساب من فمها مرتعدة بالحب ، ويذوب هو فى هيام عينيها العميقتين ، ملتقافا شفتيها البضتين فى محاولة متهاونة منه ليسكت بالنشوة همسات الإعتذار ، بينما تصر هى فى دلال جميل على الترديد ، لتغرقه فى الندم

على كونه قد فكر مجرد التفكير فى أن يغضب هـذه الزوجـة الرائعة التى يجعله البعد عنها يتـأكد بـأن هجرهـا مـن المليـون مستحيل ، فهى له الحياة ، كـل الحيـاة ، و إنـه ليتسـاءل فـى عجب : أكل هذه الرقة ، و كل هذا الحنان يصدر من إمــرأة منيتهـا الصعيـد ، بينمـا لا يـرى غـير القسـوة و الجهامـة مـن الرجال ؟!!

سبحانك اللهم لك فى خلقك شئون.

فى الصباح و هى تطعمـه لقيمـات الإفطـار ، بينمـا تمـدد جسده مسترخيا فى الفراش ، بـدأ يقـص عليهـا قصـة المجـرم الهارب ، و لما إنتهى قالت إيناس :

ـ إن زوج عمتى الحاج شديد قناوى ، هو شـيخ البلـدة و لابد و أنه يعرف عن هذا المجرم كل شئ.

ثم وعدته بان تدعو عمتها و زوجهـا للغـداء ببيتهـم يـوم اجازته، و خرج هو مسرورا إلى عمله.

حضر الشيخ شديد قناوى إلى بيتهـم فـى سيارته القديمة تصحبه زوجته متدثرة فى ملابس سوداء كعادة أهل الصعيد، و بعد الترحيب و التعارف عمدت حبيبتـه لأن تـأخذ عمتها والولدين بعيـدا ، لكـى ينفـرد بالشيخ شـديد ، و يتحدثـا بحريتهما ، و بخبرة المحترف أدار هـو الحديـث حتـى إستدرج الشـيخ فـى تلقائيـة إلى الحديـث عـن الجريمـة التـى مـر علـى وقوعهـا مـا يقـرب مـن العشـرين عامـا ، و كـانت المفاجـأة الكبرى أن الشـيخ كـان يذكـر كـل شـئ عـن الجريمـة بـأدق تفاصيله ، و هو ما أكد له أن الرجل متابع لها ، و أنه مرتبـط بخيط خفى بأحد أطرافهـا ، فلقـد تعلـم مـن تعاملـه مـع أهـل الصعيد أنهم لا ينسون من يهتمون بأمرهم ، و أنهم يوالونهم بالمتابعة و التقصـى ، مـن خـلال الروابـط القويـة التـى تصـل بعضهـم ببعـض حتـى و إن هـاجر هـذا البعـض إلى محافظـات أخرى ، و حين ألقى هو سؤاله بغتة:

ــ تـرى أيـن إسـتقر الحـال بـأبو زيـد عمـران يـا شـيخ شديد؟!

إرتبك الرجل بشدة ، و تغيرت ملامحه ، فلقد أدرك متأخرا أنه قد أستدرج إلى كمين ، حاول أن يغير مسار الحديث بسرعة ، فنادى على زوجته:

ـ يا أولاد ألن نتناول الغداء ؟.

تركه يمتص إنفعالاته، ونهض معه يدعوه إلى الغداء، فالوقت فيه من الإتساع الكثير، فما زالت هناك بعد الغداء القهوة، و كيف للشيخ شديد أن يفلت من مصيدة المحترفين؟!

قرر أن يغير مكان التحرى ، دعا الشيخ شديد لأن يخرجا سويا لكي يتعرفا على المنطقة قائلا:

ـ تصور يا شيخ شديد أننى أسكن هذه المنطقة منذ ما يزيد عن الثمانية أشهر ، و لا أعرف عنها شيئا.

قال الرجل فى صدق:

ـ كان الله فى عونك يا صدقى بك ، فعمل ضابط

ثم فاجأه هو مستطردا فى ذكاء فطرى رائع:

ـ هه .. ماذا تريد أن تعرف يا صدقى بك عن أبـو زيـد عمران ؟.

و فى بساطة أجاب صادقا:

ـ أريدك أن تساعدنى فى تخير الأماكن التى من الممكـن أن يلجأ إليها للإختباء.

إبتسم الشيخ شديد فى سخرية و قال:

ـ فى عرف المباحث سوف تتجه إلى القاهرة، هى مدينـة كبـيرة ، و تستطيع أن تبتلـع أى دليـل، و أن تخفـى مليـــون شخـــص.

أغاظته سخرية الرجل، فلو كان هـــو قـد وجـه إليـه ذات السؤال لأجابه بأن القاهرة هى فعلا أنسب مكـان للإختبـاء، ولكن:

ـ ماهو البديل فى رأيك ياشيخ قناوى ؟ .

قال الشيخ:

ـ إحدى قرى الوجه البحرى ، و حلق الشارب، وهجر العمامة.

ـ و ما هو فى رأيك إسم تلك القرية يـا شيخ قنـاوى ، وأى محافظات الوجه البحرى سوف يعشق و يختار ؟.

قال الشيخ و كأنه قد نزع فتيل قنبلة موقوتة:

ـ هو سيختار محافظة الشرقية ، و لا بأس من أن يسـكن فى قرية بيشة قايد.

و تأكد صدقى من أن الشيخ قناوى قد حدد له مكان أبو زيد عمران ، فالشرقية هى مكان عمله السابق ، و القرية هى إحدى قرى بندر الزقازيق.

شد على يد الشيخ فى حرارة شاكرا لـه حسـن تعاونـه ، وعاد الرجلان إلى البيت فى صمت ، كـل أخـذه الفكـر فـى طريق ، فصدقى تكاد سعادته يطير إلى محافظة الشرقية ليقبض على أبو زيد عمـران ، و الشـيخ قنـاوى يسـأل نفسـه : هـل أدى بعـض الـدين إلى القتيـلة التى مـاتت مظلومة بإبلاغه عن مكان قاتلها ؟.

بعد أن تدبر صدقى الأمر ، وجد أن من الأوفق أن يرسل خطابا إلى أحد أصدقائه من المقيمين بقرية بيشـة قـايد ليسـأله عن رجل غريب نزل القرية، وسنه يقارب السـتين، وحتـى لا يثير أية ظنون عند صديقه ، أخبره بأن هذا الرجـل عـم أحـد الجنود العاملين معه و قد إختفى بعد أن فقد ذاكرته ، وزيادة فى الحيطة كتب عنوان المـنزل بأسـيوط ليرسـل الصديـق رده عليه ، و أغلق المظروف ، و ترك الأمر للأقدار ، فبنـاء علـى رد الصديق يتخذ قراره بإعادة البحث أو بحفظ الموضوع.

و بالطبع لم يخف عن إيناس ما أقدم عليه ، فسالت دموعها على خديها ، و هى تقول له فى أسى:

ـ كيف يطاوعك قلبك على أن تزج برجل يودع الدنيا إلى السجن ما بقى فى عمره من أيام ، ألم يكفك ما دفعه من ثمن فظيع ، فى فرار و رعب و غربة ؟. !

قال لها:

ـ و لكنه قاتل ظالم، سفك دما بريئا طاهرا، ثم حاول أن يلوث سمعة سيدة فاضلة، لا لشئ إلا لأن شهوة المال و القتل قد أعمته، إن مثل هذا لامجرم ، يجب أن يشنق مرات ومرات.

و تزداد دموعها ، و تنظر إليه من خلال سحابات الدموع لائمة ، و هى تقول:

ـ ألا تتركه لعقاب الله ، فلقد نال الكثير من العقاب خلال العشرين عاما التى عاشها مشردا يتنقل من مكان إلى

مكان ، حتى إسمه لم يعد قادر على أن ينطق به ، أية حياة تلك التى يحياها ، إن الموت لأهون منها ، أفلا يكفيك هذا ؟.

ــ و الواجب يا حبيبتى ، ماذا أفعل أمام ضميرى كضابط مسئوليته أن ينفذ القانون ، هل تحبين لزوجك أن يتهم بالغفلة عن تنفيذ القانون ؟. !

ــ لا تقل حبيبتى ، فلو كنت تحبنى لعرفت الرحمة سبيلها إلى قلبك ، و لعرفت أن الرحمة فوق القانون.

: الرحمة فوق القانون ، الرحمة فوق القانون ، و لكن ماذا يفعل فى القانون يا رحيمتى لو عرف بأننى قد تخطيته إلى قيمة أخرى إسمها الرحمة ؟ ن سوف يطاردنى أنا ، سوف يجعل منى مجرما ، و ضابطا مهملا ، و خائنا للقسم.

قال لحبيبته فى حسم :

ــ لا .. لا أستطيع أن أخون ضميرى ، لو أكد لى رد صديقى أنه هناك ، سوف أسافر إلى الشرقية ، و سوف أقبض عليه و أسلمه للعدالة لتأخذ مجراها.

قالت في ثورة:

ـ بل لتأخذ أنت أجرك ، و ليذهب هو بشيخوخته إلى جحيم السجن الذى لولا أنه يكرهه لما هرب منه ، لكنه يكرهه و يحب الحرية ، و أنت تريد أن تسلبه حريته في أخريات أيامه لكي يموت من السجن.

إنتفضت تترك المكان في إصرار و هي تقول:

ـ لو قبضت على هذا الشيخ ، فهو فراق بيني و بينك.

و ذهبت من أمامه ، فكأن الدنيا قد ذهبت عنه ، و شعر بإنقباض غريب يملأ كيانه ، و أحس بأنه يكاد يفقد إيناس ، و .. إلى الأبد ، ولعن لحظة صدور قرار نقله إلى أسيوط ، ولحظة تنفيذه للقرار ، فإيناس لم يكن هذا حالها معه طيلة عمله، لم تكن تتدخل من قريب أو من بعيد في مسئولياته إلا بالدعاء لله بأن يحفظه ، و لكن ما الذى بدل حالها من حال لحال ، حتى ليكاد يراها توشك أن تتناول منه القلم لتصدر

هى القرار ، و قد يزيد فيراها تكاد تلغى منه العقل ليعمل بعقلها هى ؛ بالقطع هو تأثير القربى و الجارات ، و الرغبة فى تأكيد الذات و القدرة على التأثير فى مجريات الأمور ، إنه يارب ذلك الذى كره رسولك عليه أفضل صلاة وسلام الخلق فيه فقال : و الله لا يدخل أحدكم الجنة و فى قلبه ذرة من كبر. "

مرت الأيام كئيبة بغيضة ، فإيناس تعامله بفتور غريب ، و كأنه قد قتل أقرب الناس إليها ، و هو لا ينقطع عن سؤال حارس العمارة عن وصول خطابات ، و هى لا تنقطع أيضا عن سؤال البواب نفس السؤال ، بل لقد وعدت الحارس بمبلغ كبير من المال لو أنه جاءها بالرسالة المنشودة ، و لقد حك الحارس قفاه طويلا و هو يتساءل : ترى كم سيكون فى هذه الرسالة من أموال ؟!.

و لكن ساعى البريد لم يسلم الحارس على مدى إسبوع كامل ذلك المظروف الضخم بما يحوى فى جوفه من أوراق

مالية ، و لكنه سلمه بعد عشرة أيام رسالة فقيرة المظهر ، خفيفة الوزن تجعل من يمسك بها يظنها خاوية من أى شئ ، لذلك سارع إلى صدقى بك يعطيها له ، فهى بالقطع ليست الرسالة التى تنتظر زوجة صدقى بك وصولها ، فالنساء لا يحببن إلا المال ، و لا يسعدن إلا به ، و تذكر الحارس فرحة زوجته و إنقضاضها على يده كلما أظهر لها ما أغدق عليه السكان من أموال. !!

تأمل صدقى المظروف ، دقق النظر فى الدوائر السوداء التى كتب عليها " صادر من " ، فوجد أختام البريد تحمل إسم الزقازيق ، و دق قلب صدقى بعنف شديد ، فهل ستكون هذه الرسالة هى نهاية أم بداية فى حياته مع الإنسانة التى أحبها كل الحب ، و هل ستضعه حقا على طريق الإختيار بين : واجبه و قلبه و بين : الرحمة و القانون ، أم سيرحمه الرحمن من ذلك كله ، و يكون رد الصديق : لا يوجد ببيشة قايد شخص وافد بتلك الصفات.

ظلت الرسالة فى جيبه ، لم يفتحها ، و جلس إلى مائدة الطعام يبتلع فى شرود اللقيمات ، و لما لم يستطع الإستمرار فى البلع ، بعد أن تمرد حلقومه عليه فإنغلق ، إستأذن فى العودة إلى عمله فلقد نسى بعض الأوراق الهامة على المكتب

كانت ترقب فى مراراة حالة زوجها الحبيب، و كانت كثيرا ما تشعر بالشفقة عليه، و كثيرا ما لامت نفسها على قسوتها حتى لتضعه أمام هذا الإختبار الرهيب ، و لكن ما حيلتها ورأسها الصعيدى يتغلب كثيرا على حبها و حكمتها، و يصر على ما يطلب بلا تعقل و لا عقل، أيضا ماذا تراها قائلة لجارتها هذه المرة بعد أن خذلها صدقى قبل ذلك فى موضوع العريس تاجر المخدرات، و جعلها تبدو أمام أم العريس، و أمام جاراتها فى صورة مخجلة، ألم تفاخرهم بحب زوجها لها، و كيف يكون محبا و لا يطيع محبوبته، لا : إنها عازمة هذه المرة على أن تمارس دورها كأنثى، و تضغط بحبها عليه حتى تنتصر الرحمة على القانون !!

جلس إلى مكتبه ، و أمسك بفتاحة الخطابات ، و بدأ بيد مرتعشة يفض الرسالة، و يقرأ:

عزيزى صدقى بك. .

الرجل الذى أرسلت تسأل عنه موجود فعلا، و هو كما تظهر عليه من أعراض يعانى من فقدان الذاكرة فهو دائم الشرود منطو، قليل الكلام، متردد فيما يخص إسمه و بلده، وهو إسمه طنطاوى مباشر، و يعمل بحديقة عمدة القرية منذ ما يزيد عن العامين، و حين سألت العمدة عن الرجل قال أنه وجده هائما على الطريق الزراعى فى ليلة من الليالى ، وقد أصابته الحمى، فأشفق عليه و أحضره إلى الدوار، وعالجه حتى شفى من مرضه، ثم بكى طويلا و هو يسأله عن بلده، وداره، و عياله و قال أنه لا يعرف له أهل و لا دار، فتركه يقيم بحديقته يرعاها، خاصة و أن العمدة يقول عنه أنه شديد الأمنة، و عظيم الوفاء، فإذا ما كنت ترغب فى التعرف عليه، فنحن نرحب بك بيننا فى بلدك و بين أحبائك.

تحفزت كل مشاعر العمل و الإلتزام فى صدقـى، فإندفع فى حماس يستأذن فى السفر مأمورية إلى الشرقية بصحبة إثنين مـن الجنـود السـريين للقبـض علـى المجـرم الهـارب أبـو زيـد عمران.

و حتى لا تواجه عيناه عيناها ، قرر ان يبقى بالمكتب حتى يحين موعد القطـار المتجـه إلى القـاهرة ، و منـه يركـب قطـار الزقازيق ، أو يركب إحدى السيارات إلى بيشة قايد مباشرة، و كان أمر الضبط و الإحضار موجـودا بجيبـه ، كمـا كـانت هناك صورة قديمة لأبو زيد عمران.

فور وصولـه و معـه الجنديـان توجـه إلى نقطـة الشـرطة ، وإصطحب الضابط معه ، و توجـه الموكـب إلى بيشـة قـايد ، وقابلهم العمدة بالترحاب ، و حين أخبره صدقـى بقصـة أبـو زيد عمران المجرم الهارب مـن حكـم بالسـجن المؤبـد ، و أنـه يشك فـى أن يكـون متنكـرا وراء إسـم طنطـاوى ، إسـتنكر العمـدة قـول صدقى أشـد الإسـتنكار ، و رفـض ان يكـون

طنطاوى مجرما و هو بمثل خلقــه الرفيـع ، و سـلوكه المثالى ، ولكنه أمام إصرار صدقى أرسل فى طلب طنطاوى.

بعد لحظات أقبل كهل محطم يجر رجليه جـرا و قـد أطلـق شعر لحيته ، و كان يبدو أن نظره قـد ضعـف و كـاد يصبـح اعمـى ، و كشـف ذلـك أنـه كــان يتلمــس بقدمــه الأرض يتحسسها ، حتى يكتشف ثباتها ، ثم ينتقـل خطـوة للأمـام ، ولقد تـأكد ظن صدقى ، لما راح الكهل يحلق فيهم ، و قـد إقترب جسده منهـم غايـة الإقـتراب ، و حـين تبـين لـه أنهـم غربـاء إرتبـك أشـد الإرتبـاك ، و لما أعلمـه العمــدة بصفـة صدقى، تراجع الكهل إلى الخلف فى فزع ، فناداه صدقى:

ـ إقترب يا أبو زيد ، لا تخف.

و إنتفض جسد الكهل بشـدة و كـاد يسـقط و لكـن يـد صدقى كانت أسرع إليه فمنعه مــن النهيـار ، و قـد تقطعـت شـرايين القلب ، و تسـاءل صـدقى فى شفقة حقيقية : و هل

من خلال هذا الشقى أصنع مجدى ؟. !

.. فتح الكهل فم هو كفوهة القبر سوادا ، فلم تكن بـه سنة واحدة و قال :

– نعم يا سعادة الباشا أنا أبو زيد عمران ، و أظن أنه قد حانت لحظة القصاص.

و وسط دهشة العمدة و الصديق ، مد الكهل يدان ترتعدان من الضعف و الوهن ليضع له الجنديان قيود الحديد، و لكن صدقى أشار بإصبعه ، فإمتنع الجنديان عن وضع القيد، و قال صدقى:

– يا عم أبو زيد أظن أن السماء قد إقتصت منك بما يكفى، السلام عليكم.

إستدار صدقى مبتعدا بعد أن حيا الموجودين، و قرر العودة إلى مديرية الأمن لينهى قضية أبو زيد عمران،

و انسابت دموع العمدة و دموع أبـو زيـد تـأثرا مـن موقـف الضابط الشهم.

رغم مرور يومين كاملين على صدقى لم يـر فيهمـا زوجتـه أو إبنيه ، لم يذهب إلى بيته عند عودته إلى أسيوط ، بل توجـه إلى مكتبه ، و كتب مذكـرة أثبت فيها أن طنطاوى مباشـر لم يكن هو أبو زيد عمـران ثم تعمد أن لا يعـود إلى البيـت إلا فى ساعة متأخـرة من الليل ، فلقـد كان فـى أمـس الحاجـة لأن يخلـو بنفسه . دلف إلى فراشه فـى صمـت و هـو يقـاوم رغبة عظيمة فى البكـاء مـن أجـل أمريـن : الأول أنـه للمـرة الأولى يخالف ضميره المهنى ، و الأمـر الثـانى لذلـك الموقـف الذى وقفه أمام كهل لا يتمنى مخلـوق أن يعيـش حتـى يصـل إلى ما آل إليه من هوان وضعف ، فجعله يفاجأ بما زلزل بقايا الكهل بالرعب ، بعد أن ظـل يهـرب مـن مواجهـة الحقيقـة ، وفرارا من ظلمة السجن طيلة عشرين عاما.

و حين أشرق الصباح ، فوجئ صدقي بزوجته تنبئه ، أن الشيخ قناوى يطلب مقابلته ، و لقد دهش غاية الدهشة لحضوره المبكر ، و لكنه لم يملك إلا أن قام من فراشه و إتجه إلى حيث جلس الشيخ إمبابى منتظرا بحجرة الإستقبال ، حياه و رحب به في كلمات تغلب النوم ، ثم جلس مترقبا ، فلما وجد التردد باد على الرجل تساءل:

– خير يا شبيخ قناوى ، هل من خدمة أستطيعها لك ؟.

قال الرجل متلعثما:

– لقد جئت بعد أن سمعت أنك قد ذهبت للقبض على أبو زيد عمران ، فماذا وجدت ؟.

قال صدقي في غيظ من يكره في أهل هذه البلاد تجسسهم ، و حبهم لمعرفة كل ما يحدث حولهم ، سواء أكان يخصهم أو هو ليس من شأنهم:

ـ لم أجـد شيئا يا شيخ قناوى ، فالرجل الذى ببيشة قايد .. شيخ تجاوز الثمانين ، ثم هو مـن أهـل بحـرى و ليـس من الصعيد.

تنهد الشيخ قناوى ، و هو يقول:

ـ لك ما تراه فأنت صـاحب القـرار يـا ولـدى، و لكـن أحب لك أن تعرف أن المرأة التى قتلـها أبـو زيـد عمـران هى أخت زوجتى، وعمة زوجتـك، و أنـك إذا تهـاونت فـى هذا الأمر فإنك تتهاون فى حق أقـرب النـاس إليـك، إينـاس زوجتك.

كانت إينـاس قـد حضـرت منـذ لحظـات تحمـل صينيـة و عليها فناجيل القهوة ، و سمعت مذهولة كـل مـا قالـه الشـيخ قناوى ، و فى هدوء إلتفت إليه صدقى قائلا:

ـ إن ما فعلته يا شيخ قناوى، قبل أن يكـون معبرا عـن قناعتى، كان بناء على طلب زوجتى، و عليك أن تسألها.

صرخت إيناس:

– هل ذهبت إلى أبو زيد ، و تركته يهرب ، لماذا لم تقل لي أنك قد فعلته ، لماذا تركتني أرى فيك الضابط فظ القلب، و الرجل القاسى الذى سوف يرمى بى إلى أقرب صندوق قمامة لو تقاعست عن خدمته ، فالعمل عندك هو الحياة ، لماذا ؟!.

قال صدقى بهدوء:

– لم أقل لك لأننى رأيت أن الرحمة فى حالة أبو زيد يجب أن تكون فوق كل شئ ، حتى فوق مستقبلى و عملى.

كان الشيخ قناوى مذهول مما يسمع حوله ، فبدى و قد فغر فاه أبلها ، ثم صرخ فجأة:

– ماذا تقولون ، و ماذا أسمع ؟. !

قالت إيناس:

– إسمع يا عمى شديد ، إن ما فعله زوجى هو من صميم

إنسانيته ، و رغم أننى لم أكـن أعرف أن القتيلة هى عمتى رحمها ا لله ، و هو أمر لن يغير من سلامة ما عمل صدقى.

صرخ الشيخ قناوى و قد إنتابه هياج:

ـ إذا سوف أسافر إلى بيشة قايد لأقتل أبـو زيـد و أمحـو العار عنك و عن أسرتك.

قالت إيناس:

ـ أى عـار ذاك الـذى ستمحوه يـا شـيخ قنـاوى ، إن القضاء قـد أثبـت أن عمتى مـاتت طـاهرة شـريفة ، و العـار الحقيقى هو الذى سترتكبه بقتل ذاك العجوز المسكين الـذى حرم من أولاده و من بيته و عاش شريدا بلا رعاية ، ثم إنـك بقتله سوف تفتـح أبـواب الـدم فـى مسلسـل يعلـم ا لله متى ينتهى من القتل و إسالة الدماء.

و أضاف صدقى فى هدوء:

ـ و هل ستجد أبو زيد عمران باق فـى مكانـه يـا شـيخ قناوى بعد أن عرفناه ؟ . !

خرج الشـيخ شـديد قناوى غاضبا ، و أسـرعت إينـاس بالإرتماء فى أحضان زوجها ، و إتخذ صدقى قـرارا بـأن يجعـل اليوم هو يوم راحته فلا يغادر البيت بحال.

أما الشـيخ قنـاوى فقـد قـرر أن يبعـث برسـالة إلى مديـر الأمن شارحا له كل ما حدث من زوج قريبته ، فلعلـه ينفـث بهذا عن الحقد الذى إشتعل فى قلبه نتيجة عدم القبض على أبو زيد عمران ، و وضعه هو ثانية للبحث عنه طلبا للثأر ، وكـان سيسـتريح بقيـام الحكومـة بواجـب القصـاص ، فلقـد كبرت يا شيخ قنـاوى ، و قـل جهـدك ، و صـارت عظـامك هشة ، ثم تأتى إيناس تلك المرأة اللينة العظام و التـى فقـدت كل صفاتها الصعيديـة ، و زوجهـا ، ذلـك الضـابط المتهـاون الواضع للرحمة فوق القانون ، و لكن ما العجب فـى هـذا يـا

شيخ قناوى و هم من أبناء بحرى الذين ربوا على التسامح فى حقوقهم و إهدار ثأرهم ؟. !

عاش صدقى مع إيناس أجمل شهر عسل ، و لكن جاءت لحظة المواجهة ، فلقد أرسل مدير الأمن يستدعى السيد/ صدقى فؤاد للتحقيق معه حول واقعة المساعدة فى تهريب المجرم الهارب أبو زيد عمران.

كان مدير الأمن مقتنعا بأن هناك دسيسة ، و وشاية تعمدها مرسل الشكوى التى وصلته بالبريد منذ أيام بتوقيع " خادمكم الأمين " ، فلقد وجد من صدقى إخلاصا و تفانيا فى تأدية عمله لم يجده فى كثير من الضباط السابقين ، لذلك لم يهتم بسؤال أى من الجنديين الذين رافقاه فى مأموريته إلى الشرقية ، و عزم على أن يحفظ الشكوى إداريا.

و حين مثل صدقى أمام رئيسه ، قال مدير الأمن فى بساطة ، و هو يمد يده إليه بالرسالة:

ـ خذ يا صدقى إقرأ وشاية أهل الظلم و النميمة.

أمسك صدقى بالرسالة و قرأها بإهتمام شديد كلمة بعـد أخرى ، ثم كانت المفاجأة ، فلقد إعتـدل فى و قفتـه و أدى التحية العسكرية لمدير الأمن ثم قال:

ـ يا أفندم هذه الشكوى صحيحة مائة بالمائـة ، و أرجـو تحويلى إلى المحاكمة.

قال مدير الأمن يهدئه:

ـ إجلس ، و إهـدأ يـا صدقـى ، و إحكـى لى كـل شـئ بالتفصيل.

و بعد أن إستمع الرجل إلى ما حدث ، قال بصدق:

ـ أقسم لك أننى لو كنت مكانك لفعلت ما فعلته أنت، هات دفتر الهاربين من تنفيذ الأحكام.

قرأ مدير الأمن أبعاد القضية ، ثم برقت أساريره بالسعادة و قال ، إن أبو زيد قد سقط تنفيذ الحكم عنه ، منذ أيام فليس الفيصل تاريخ إبلاغنا بهروبه ، و لكن الفيصل تاريخ صدور حكم المحكمة ، و لقد كان ذلك منذ عشرين عاما و ثلاثة عشر يوما.

حول صدقي للتحقيق ، وصدر قرار بتخفيض رتبته درجة، و أصدرت المحكمة حكمها على أبو زيد عمران بالبراءة ، و إنهار أبو زيد عند قدمي صدقي و هو يقول:
ـ نفذوا على حكم السجن و لكن لا تظلما إنسان عادل رحيم.

قالت إيناس حين خلت بزوجها:
ـ هل تعلم يا صدقي أنني أشعر بالذنب لكوني فرحت بالعودة إلى مسقط رأسي ، ألا ما أعجب الأيام ، و ما أشد تأثيرها على الناس ، فلقد كان أبي يصور لي ناس غير الناس،

أما ما رأيته فيجعلني أعد الأيام عدا لنعود معا إلى بيتنا الـذى شهد بدأ حياتنا ، و إن كنت لا أندم على أمر فهو أننا جعلنـا الرحمة فوق القانون.

أبنــاء
الرجــل
المزواج

هو مثلا ظل يعمل على خط القاهرة ـــ دمشق أكثر من عشرة أعوام متصلة ، مما إضطره إلى أن يستأجر شقة جميلة بدلا من حياة الفنادق المكلفة ، و التى تتطلب العيش بأساليب ثابتة ، و نظم نمطية ، و هو ما كان يكرهه سعيد ، فهو محب للفوضى المعيشية ، محب للجيتار الذى يبدع فى العزف على أوتاره و لا يفارقه فى مقامه و ترحاله ، محب أيضا للجمال فى كل صوره و ألوانه ، فهو يحبه فى اللوحات التى يرسمها الرسامين ، و فى صور المصورين ، و فى إبداع الخالق فيما خلق و ما يخلق من طبيعة تشمل الطقس البديع ، و الزهور ، و الحسناوات ، فما بالكم و الحال كذلك ، فى أن لا نعذر سعيدا إذا هو أقدم على الزواج حيث حط به الرحال من إحدى بنات الشام : رائعات الحسن ، فاتنات القوام ، زرق العيون ، آسرات محبى الجمال ؟

و لقد كان زواج سعيد حديث أهل الحى كله ، لأنه جعل منه حفلا صاخبا، فهو يحب اللهو أشد الحب ، ويعشق

الغناء تمام العشق ، كما و أنه كريم دائما ، غير محب للمال إلا لكي ينفقه إنفاقا، كما أنه عاطفي بطبعه تنسال دموعه في صدق و غزارة إذا ما حان وقت الرحيل في سفر إلى القاهرة في أجازته الشهرية لزيارة الأهل ، وهي أجازة قصيرة أيامها معدودة ، و إذا كان الحال كما ترون ، فما بالكم بحاله إذا أبلغ من شركة الطيران بعد عشرة دامت سبع سنوات كاملة، بأنه سوف يهجر دمشق ليعمل على خط : ليجوس — القاهرة بدلا من خط : دمشق ـ القاهرة ؟!.

لقد جعل سعيد ليلة الوداع ليلة تفيض بالرومانسية ، أريقت على جوانبها الخمر ، و إنهمرت فيها قبلاته على أولاده الثلاثة و على أم الأولاد بدون حساب ، ثم كان سفر على وعد منه بالعودة لمرافقتهم إلى مقر العمل الجديد ، و لكن الوعد لم يتحقق أبدا .

ففي نيجيريا حيث الجمال غير الجمال ، و اللغة الإنجليزية تنطق بلكنة آسرة ، و سكنى الفنادق و البانسيونات كريه ،

و الوحدة مع الجيتار و الذكريات عذاب ، ألستم معي والحال هكذا في أن نبحث نحن لسعيد عن زوجة نيجيرية سمراء تؤنس وحدته ، و تمنع عنه سلوك الطرق التي تؤدي إلى جهنم و بئس القرار ؟!!

و لكن سعيدا لم يتح الفرصة لأحد لكي يبحث له، فسرعان ما تزوج من سمراء نيجيرية ، سقته الشهد ألوانا ، فلقد كانت شديدة التذوق للموسيقى التي تنساب من جيتاره ، فما أن يضع أصابعه لتعانق الأوتار حتى يتقد فيها اللهب فتتمايل و ترقص بعنف و بلا توقف حتى يتعب هو وتتصلب أصابعه .

و لأن اللحظات السعيدة غالبا ما تكون قصيرة ، فإن الشركة التي يعمل على طائراتها قد رأت أن تبدد سعادته بسرعة ، و هو بعد لم ينجب من النيجيرية السمراء غير طفل واحد ، و طفلة رائعة الحسن جاءت بعد رحيله بثمانية أشهر،

لأنه لم يمكث على خط القاهرة - ليجوس غير عـامين و خمسـة أشهر و يومان بليلة واحدة !!.

و إنتقل سعيد من سمراوات إلى سمراوات ، و لكنهـن مـن صنـف فريـد ، فـالعيون سـود فـى غمـوض الليـل ، والشـعر هفاف و التـاريخ الشـامخ للعروبـة يطـل أصيـلا منهـن ، إلى جانب أمر لم يجده فى أى من زوجتيه السابقتين ، و هو الطيبة و المودة الشديدة فى التعامل مع الزوج ، و قد كانت زوجته حقا كما وصف الخـالق العظيـم حكمـة الـزواج و قـال أنهـا مودة و رحمة ، و لذا طال عمله على خط القاهرة - أبو ظبـى عشرة أعوام كاملة ، أنجـب فيهـا خمسـة أبنـاء مـا بـين البنـين والبنات ، و لكن سعيد لم ينس زوجتيه الآخريـين ، بـل كـان دائم الزيارة لهن ، و على فترات متقطعـة و إن بـدت زياراتـه منتظمة ، و هو طوال هذه السـنوات لم يفـش لإحداهـن سـر زوجتيه الأخرتين ، فكل واحدة منهن هى فى غاية الثقة مـن كونها : مالكة القلب ، و عرش الحب الذى توج حياته ، ولم

تبد أى منهن شكا فى سلوكه ، أو تبرما من البعاد ، فهـو قـد أفهمهن منذ اللحظة الأولى للتعارف بأن الطيار زوج متجول، هو الكدبور لا يكف عـن الحركـة و الطـيران حتـى يشـيخ ، لكنه دبور يعود دائما بالحب و الحنين إلى عشه .

.. ثم كان القرار الذى وصله أخيرا ، و لقد كان يطلـق على قرارات النقل : الشؤم الذى يطاردنى ، و إن كان هـذه المرة فى حيرة من تسميته فهو لا يدرى : هـل هـو شـؤم ، أم خير ؟!.

فلقد وصله قرار من الشركة تخطره بأنه : قد نقـل ليعمـل طيارا أرضيا بالمقر الرئيسى للشركة بالقاهرة !.

.. و أخيرا ها قد عاد سعيد ، و بعد سنوات طوال مـن الترحال لتستقر منه الأقدام فى مسقط الرأس!!.

– أهلا يا فسطاط عمرو بن العاص ، أهلا يا قاهرة المعـز لدين ا لله الفاطمى.

هكذا قال سعيد فى أسى بدلا من الفرح ، فكيف سيواجه مرحلة الإستقرار ، و كيف سيكون إستقرارا و له ثلاث زوجات ، و سبعة من الأبناء ، و حبيبة تنتظر هذه اللحظة منذ عشرة سنوات لكى يحقق لها ما إنتظرته طويلا : ان يهبط من السماء إلى الأرض لكى يتحول الأمل إلى حقيقة و يتزوجان .

لقد عاش سعيد مع أمل أغرب قصة حب عرفتها البشرية، فأمل هى إبنة جيرانهم التى تربى معها ، كانت أم سعيد تعمل مشرفة فى إحدى المؤسسات ، و كانت أم أمل ربة منزل لا تغادر دارها إلا إلى السوق لشراء لوازم البيت ، و لا هم لها إلا رعاية زوجها الموظف المرموق بمجلس المدينة ، و بحكم الجيرة ، و بحكم الصداقة التى نشأت منذ أول لقاء بين أم سعيد و أم أيمن و كان من الطبيعى ، بل كان من الضرورى كعادة أهل تلك الحقبة من السنوات التى تقع بين الثلاثينيات و الأربعينيات ، أن تقول أم أمل لأم سعيد:

- دعى سعيد يحبو فى رعايتى فهو تماما فى معزة أمل.

و راح سعيد يحبو ، و يكبر مع أمل ، و هو يكبرها بثلاثة سنين ، و كلما حبى ، و كلما كبر ، إزداد إحساسه بأنه هو و أمل كيان واحد لا يجب أن يتجزء ، كان لا يستطيع أن يذهب إلى فراشه قبل أن يطبع على جبينها قبلة المساء ، وظل على عادته إلى أن وجد نفسه يصاب بإرتباك كبير إذا ما إقترب من أمل ، و شعر بتغير غريب فى مشاعره ، فلقد أصبح يحبها حبا يجعل قلبه يتقافز داخل صدره ، حتى ليكاد يغادره ليكون فى مكانه الصحيح و المريح داخل صدر " أمل . "

و لقد ماتت أم أمل ، أو ماما أم أمل كما كان يناديها سعيد فى سن مبكرة ، و لقد بكاها سعيد أكثر مما بكتها أمل، و كان من الطبيعى أن تنتقل رعاية أمل من ماما أم أمل، إلى ماما أم سعيد خاصة و قد مات بابا أبو سعيد منذ

سنوات، و لقد كان من الطبيعى أن تدفع الرغبة إستمرار سلامة أمل و سعيد الأب و الأم ، إلى دمج البيتين فى بيت واحد ، فبعد أن كان بابا أبو أمل يحضر إلى بيتهم كل يوم بعد عودته من العمل ، ليتناول طعام الغداء معهم ، و تذهب ماما أم سعيد إلى شقة أمل لتعد لها ولأبيها العشاء ، ثم تطمئن على ذهاب أمل إلى فراشها ، و كان كل هذا يحدث ، و سعيد كالفراشة يحوم حول أمه فى غيرة شديدة عليها من بابا أبو أمل .

لقد كانت الأم ترقب تحركه الدائم حولها ، و هى فى غاية السرور ، و لا تكف عن القول لنفسها : يا لسعادتى سعيد قد كبر و صار رجلا يفهم معنى الغيرة على أهله. !!

و لقد جاء قرار الزواج من بابا ابو امل متأخرا ، فلقد ترقب سعيد حدوثه منذ شهور طويلة ، و الرجل يأكل ويشرب و يتأمل الأم بعينيه فى غدوها و رواحها و هو صامت لا يتحدث ، و لا يقدم ، حتى لقد قال سعيد لنفسه كثيرا:

- يبدو أن أمى لا تروق للرجل. !

و لكن و بعد أن تأخرت لكن طويل ، ها هو الرجل يتقدم إلى سعيد يقدم رجلا و يؤخر أخرى ، ثم يهمس:

- سعيد يا بنى، لقد كبرت ، و صرت أنت لأمك الإبن و المسئول عنها، و أنا أريد أن نضم بيتينا ليصيرا بيتا واحدا.

و فى سعادة لم يخفها سعيد أجاب:

- و هذا ما تمنيته دائما يا عمى.

و لسرعة الرد ، تساءل الرجل و هو لا يكاد يصدق:

- هل يعنى كلامك هذا يا سعيد أنك توافق على زواجى من والدتك ؟!.

.. و قال سعيد بصوت مرتفع:

- و هذا ما قلته يا أبى.

ربت الأب على كتف سعيد و قال:

- نعم الإبن أنت يا سعيد.

و أجاب سعيد:

ـ سأكون كذلك يا أبت لو أنك وافقت على أن تكون أمل زوجة لى حين تكبر ، و أنتهى أنا من دراستى.

و لم يبد الأب الجديد إعتراضا ، فلقد كان سعيد فتى ناجح فى دراسته ، و كان كل أساتذته يقولون أنه الأكثر ذكاء بين أقرانه لو تخلى عن صناعة الطائرات الورقية أثناء العملية التعليمية .!!

.. و هكذا إرتبط سعيد بأمل ، و سارت بهما الحياة سيرها العادى اليسير ، و الحب ينمو و يشتد بينه و بين أمل، و العائق فى طريق زواجهما لا يزيد عن كثرة ترحاله بين البلاد ، فأمل لا تستطيع أن تعيش خارج مصر ، بل و لا حتى خارج القاهرة ، فهى قد إرتبطت برعاية الأب الذى هدته الشيخوخة و مكنت منه كل الأمراض ، كما و أنها مرتبطة بمرضاها بعد أن أصبحت من أشهر أطباء الأطفال ، كما أنها تواصل دراساتها و أبحاثها داخل الجامعة ، فهى أيضا

أستاذة مرموقة بكلية الطب ، و محبوبة من طلبتها كل الحب، و لهذا تعاهدا على الإنتظار حتى يعود سعيد ليقيم دائما بالقاهرة ، و بهذا يتحقق الأمل الذى طال إنتظاره.

.. و ها هى اللحظة قد جاءت ، و ها هو الأمل قد تحقق، و لكن ماذا يستطيع سعيد أن يقول لأمل ، حبه الطاهر النقى ؟. !

.و ماذا هو مستطيع أمام زوجاته الثلاثة ؟!.

لقد عرفت أمل بالخبر و كادت أن تطير محلقة فى الفضاء من شدة الفرح ، و عرف الأب أيضا بقرب إنتهاء قصة الحب العذرى ، و أوشك أن يموت من شدة الإنفعال لولا أن أمل هرعت إليه بأنبوب الأكسوجين و دواء القلب ، فها هو سيظفر بالفرصة التى لم تتح لأحد من جيله : فلا أم سعيد، و لا أبيه ، و لا أم أمل ، لا أحد من هؤلاء جميعهم أتاح لهم العمر هذه السعادة الغامرة ؛ أن يروا ما سيراه ،

يروا أمل و هى فى ثوب الزفاف ، أو سعيد و هو مرتعش الأوصال متفصد العرق و هو يردد وراء المأذون عهد الزواج ، أيه .. أخيرا سوف يحدث ما كان يراه فى لحظات اليأس الحزينة حلما بعيد المنال ، و من يدرى : فلعله يرى أيضا نتاج هذا الزواج أحفادا من البنين والبنات .

كان سعيد هو المهموم الوحيد فى البيت ، حيث تعشش الفرحة على الساكنين : أمل ، و بابا.

و لقد حاول أن ينتقل إلى فندق من فنادق القاهرة ، ولكن أمل و بابا أمل إستنكرا منه هذا القول ، و لكنه ما كان يريد الإنتقال إلا خوفا على فرحتهما من الإنتكاس أمام حزنه الظاهر دائما فى تكشيرة مرتسمة على ملامح الوجه للهول الذى يطارده ليل نهار .

: ماذا سيفعل بزوجاته الثلاث حيث تعيش كل واحدة منهن فى دولة غير الدولة ينتظرن لحظة عودته ، و إذا كان

يستطيع أن يتخلص منهن و يطلقهن ، فماذا تراه فاعل بأولاده ، حبة القلب و حصاد العمر ؟!.

و كأن القدر قد أشفق على سعيد ، و كره له أن لا يكون إلى الأبد غير سعيد ، وجد صديقه حسن أمامه وجها لوجه على سلم مكتب الشركة ، صاح سعيد كالمستجير:

– حسن أبو على .. صديقى ، منقذى ، أخيرا وجدتك.

و إلتحم الصديقان فى إحتضان عميق ، و توجها إلى أقرب مكان ليجلسا فى إستعادة كاملة لذكريات التلمذة والصعلكة ، و الأيام الخوالى ، و الشوق الصادق يغلف الوجهان بالفرحة ، و أخيرا إنتهى المطاف بما آل إليه سعيد ، و كان السؤال يفرض نفسه:

– ماذا تفعل لو كنت مكانى ؟!.

قال حسن فى بساطة شديدة:

– تزوج أمل بأسرع ما يمكن ، و فى رحلاتك الدورية لتفقد فروع الشركة ، زر زوجاتك الثلاث و أبناءك ، و دع للأيام إيجاد الحل.

حل بسيط ، غاية فى البساطة ، كان يقدم عليه فى كل زيجة من زيجاته الثلاثة ، و لكن حين تكون أمل هى الزوجة ، بالأمر يختلف كل الإختلاف ، فهى أمل حبه الحقيقى ، وواحة السعادة بل هى له كل السعادة ، هى شئ آخر غير نساء الدنيا مجتمعات هى عقل ، و رحمة ، و أمومة ، و رقة ، و سمو ، و .. و آلاف الصفات الطيبة ، التى لو جمعت إمرأة صفة واحدة منها لإتخذها الرجال أملا و نموذجا لما يحتاجون إليه من زوجات.

.. و بعد صمت ران على الصديقين لفترة طالت ، رفع سعيد عينيه إلى صديقه ، و قد إمتلأتا بالحنان و الإستنكار ، قائلا فى تردد:

ـ و لكن يا حسن ، أنت لا تدرى ، هى أملى ، و لا أستطيع أن أفعل بها هذا ؟. !

قال حسن فى بساطة:

ـ إذن عليك أن تبدد فرحتها ، صارحها بحقيقة ما فعلت، و دمر كل تلك الأحلام الوردية التى نسجتها من صبر الأيام و السنين ، و زينتها بالأمل ، إفعل هذا لأنك لا تحب لها العيش فى الحلم الذى تمنته و لو لأيام قلائل ، و هذا يا صديقى خير لها من أن تتركها تحصد الأحزان.

.. هى الحقيقة ، كلماتك ياحسن هى الحقيقة ، و ما أرسلك ا لله لى إلا لتكون نجدة ، و مخرجا لسبيل أسعد به أمل ، و تحولت حال سعيد لحال مخالف ، لقد عاد ثانية ليكون سعيدا ، و قال فى عزم:

ـ سأتزوج أمل يوم الخميس القادم ، و أنت يا حسن أول مدعو على قراننا ، و أرجو و أنا أودعك على عجل الأن ، أن لا يكون هذا فراق بينى و بينك؟!.

بعد شهور من الهجر أمسك سعيد بالجيتـار و راح يعـزف منتظرا عودة أمل من عيادتها ، و العجـوز أبـو أمـل يرتشـف بأذنيـه السـعادة التـى تشـع مـن نغمـات الجيتـار المرحـة ، ولتنعكس فرحة على قسمات وجهه التى رسم عليهـا الزمـن أخاديد و جسور و هضاب ، و يتسـاءل فـى ترقـب سـعيد : أتراها قد حانت اللحظة التـى إنتظرهـا طويـلا ، هـل سـيضع الفتى يده فى يده و يقول له كما قال : زوجنى أمل ؟.

و تفتح أمل الباب ثم تغلقه، و يقفل باب التساؤلات عند الأب، و يرى سعيد يحوم كالفراشـة حـول أمـل، و كأنـه قـد عاد شـابا مـن جديـد، و يـروح يعـزف لهـا : أهـواك. و أمـل تضحـك فى سـرور ، ثـم تنفجر القنبلة التى طال إنتظارها ، ويقول سعيد:

ـ أتقبلين زواجى يا أمل ؟.

و تجيب أمل فى دلال و قد توردت وجنتاها:

ـ دعني أفكر.

و في خوف على كل ما كان يندفع الأب ليحتضنهما قائلا:

ـ هو عهد قطعته على نفسي منذ سنين : أن لا تكوني لغير سعيد يا إبنتي ، فلا تنكثي بعهد أبيك.

و يتوقف سعيد عن العزف و يقول:

ـ إذا فزفافنا يوم الخميس القادم.

* * *

و يحضر حسن فرح صديقه سعيد ، و يعيش العروسان أسعد أيامهما ، و ككل اللحظات السعيدة ينسيان الدنيا وما عليها ، حتى لقد أصيبت الزوجات و الأبناء بالقلق لكل ذاك الإنقطاع الغير مسبوق، فتتوالى الرسائل على مقر الشركة، و يفض سعيد المظاريف، و يقرأ الكلمات : وتنهمر

دموعه ، و يسرع إلى صديقه حسن مستنجدا و بلا تردد ينصحه حسن بأن يسافر فى مأمورية تفتيش على الفروع الثلاثة : دمشق - ليجوس - أبو ظبى ليتمكن من زيارة أولاده وزوجاته ، و أن ينظم جدولا لتكرار الزيارات بإنتظام.

و حين يسأله متردداً :

ـ و أمل ، هل سترافقنى ؟.

و بنفس البساطة يقول له حسن:

ـ و هل نسيت أن أمل أستاذة لديها عملها ، و طبيبة لديها مرضاها الذين لا تستطيع الإنقطاع عنهم ؟!.

* * *

و تمر السنوات ..

و الأولاد يكبرون ..

و العمر يتقدم ..

و أمل لا تحقق الأمنية للأب المنتظر ، حتى يصاب باليأس و يموت مهموما ، و أمام حقيقة الموت يفكر سعيد طويلا ،

حتى يصاب بالسقم ، فما هو المصير الذى سوف ينتظر أولاده بعد أن يموت ، و هم شتات فى بلاد ا لله لا يعرف أحدهم عن إخوته شيئا ؟!.

و ينصحه حسن بأن يرسل إلى أولاده و زوجاته إلى القاهرة ، بعد أن يصارح كل واحدة منهن بالحقيقة ، وسوف يتكفل حسن بأمر مواجهة أمل.

* * *

و يسافر سعيد إلى دمشق فلا تدعه زوجته يغادر البيت قبل أن يكسر قيدها ، و تتبعه بتحميع أولاده و تسفيرهم معه إلى القاهرة ، و يستقبلهم حسن بالفرحة ، و يتعهد برعايتهم بعد أن يستأجر لهم الأب سكنا خاصا : و لم لا و حسن لم يرزق بنعمة الأبناء ؟!

و بعد أسابيع يسافر إلى ليجوس ، و يفاجأ بأن زوجته قد طلقته ، بعد أن ملت الإنتظار ، و يعود مسرعا إلى القاهرة بولدين ينضمان إلى إخوتهم.

اما فى أبو ظبى فلقد اصرت الزوجة على أن يبقى أولادها الخمسة معها ، و أن تظل هى لترعاهم ، و تحسن تربيتهم ، اما ان يبقى عليها أو يطلقها فهذا أمر مرده إليه ، وأمام إنسانيتها الدافقة لم يملك سعيد دموعه ، فبكى و بكت، و بكى الأبناء ، و عاد إلى القاهرة دون أن يصحب معه هذه المرة أحدا .

ذات ليلة قمرية ، و قد جلس سعيد و أمل فى الشرفة يغمرهما ضوء القمر ، بدأت أمل الحديث عن أملها لو إستطاعت أن تأتيه بالأولاد ، لتعوضه عن هذه العاطفة التى ذاقتها فى عملها كطبيبة أطفال ، و تصف له شعورها بأنها قد أصبحت تحس أن كل أطفال العالم هم أطفالها هى ، ويشعر سعيد بأن الحظ يحالفه ، و يفتح له باب الخروجمن الهم على مصرعيه ، فيقبلها قائلا:

ـ و هل لو كانوا أبنائى من نساء أخريات ، أكنت سوف ستحبينهم أيضا ؟!.

أجابت أمل ببساطة:

– بل سوف أحبهم أكثر.

قال سعيد مستطردا لا يريد أن يفلت فرصة هذا الصفاء

– و لو كان هذا الكلام حقيقة ، هل ستتعاملين معها بنفس المنطق ؟. !

قالت:

– و هل تراك تظن أننى كنت أصدق أنك لم تعرف نساء غيرى طوال تلك السنوات ، أو أننى كنت غافلة عن حزنك بعد أن إستقر بك المقام بالقاهرة، لقد إحترمت فيك حرصك على أن لا تجرح مشاعرى.

قاطعها سعيد يقسم فى صدق:

– و لكنى أقسم بـا لله أننى لم أحب غيرك ، و لم أتمنى رفيقة لى إلاك.

و ضعت كفها الحانى على شفتيه ، و همست:

– و هل كنت سأنتظرك لو شككت فى هذا لحظة واحدة ؟!.

قال سعيد و قد تكشفت له الحقيقة:

ـ ترى هل قال لك حسن ؟.

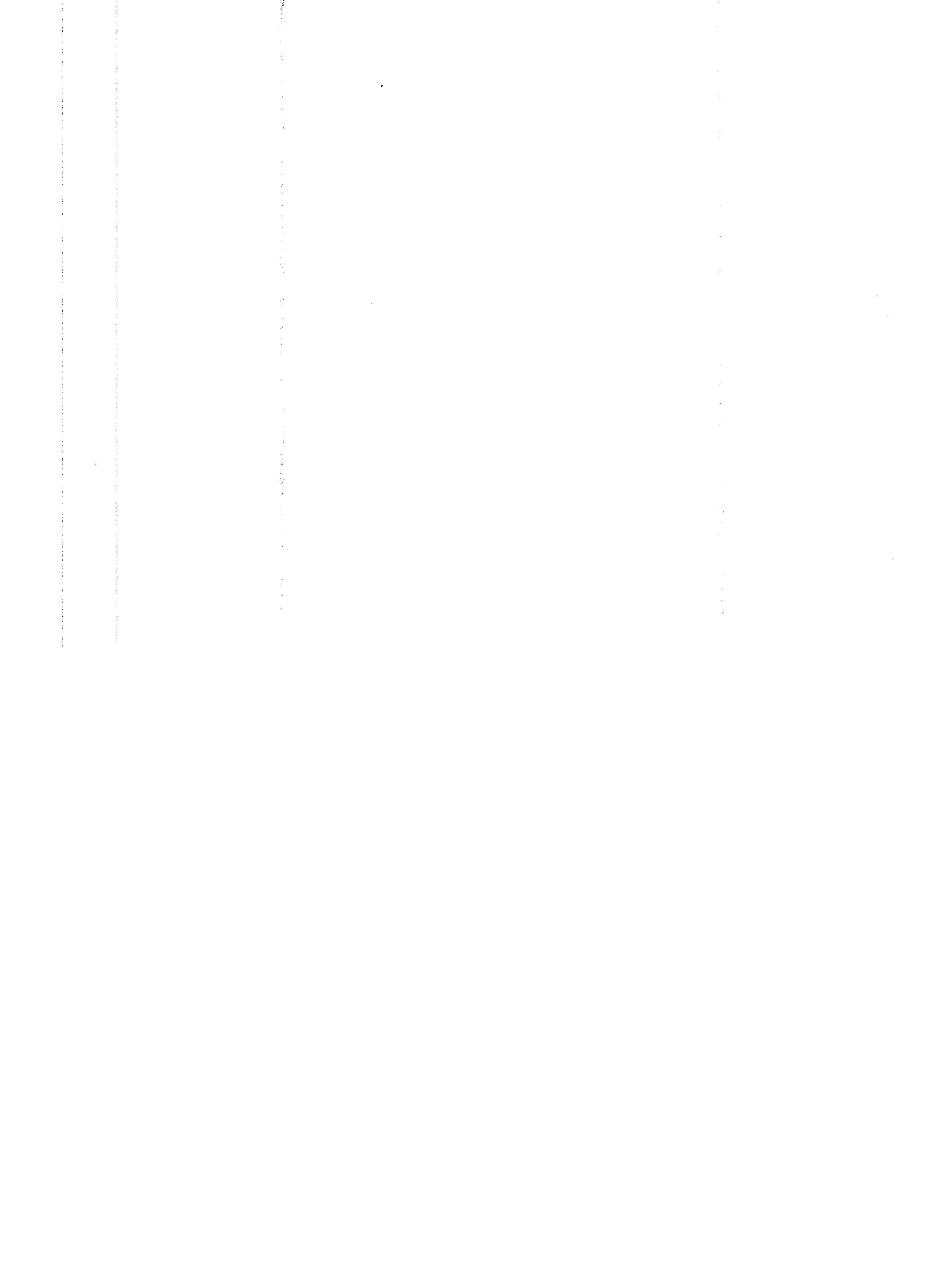
قالت وهى تنهض إلى داخل الحجرة ثم تعود و بيدها شئ تخفيه وراء ظهرها:

ـ بل هم يعرفونى أيضا تمام المعرفة ، و لقد صورنا معا ، و يبقى أن أذهب معك إلى الإمارات لأقنع زوجتك النبيلة بأن تعود معنا لتعيش بجانبك بالقاهرة.

و حين تخرج ما كانت تخفيه يرى سعيد عجبا ، فهذه أمل تتوسط عائلته الكبيره ، زوجاته ، أبنائه ، و يسقط مغشيا عليه من هول المفاجأة.

ترى هل تصدقون هذه الحكاية ، خاصة إذا عرفتم أن من رواها لى صديق قديم ، و أنه قد ختمها قائلا:

ـ لقد سافر سعيد و معه أمل إلى أبو ظبى ، و أقنعا زوجته و أولاده بالعودة معهم إلى القاهرة ، و أن أمل لا تجد من بين نساء الدنيا إمرأة ترتاح إليها غير تلك الزوجة !!.



مليـون
يساوى
صفـــــر

عاش رشوان فترة عصيبة من حياته بعد أن هجر مدينته بورسعيد ، بعد أن أصبحت فى مدى المدفعية الإسرائيلية ، بعد الغزو الإسرائيلى للضفة الشرقية من قناة السويس ، وذلك فى أعقاب هزيمة الجيش فى يونيو من عام النكسة ١٩٧٦.

لقد إضطر أن يهاجر مع مئات الآلاف ممن هجروا مدن القناة ، و لقد كان عمله كمدرس يقتضى أن يعاد توزيعه ، ولقد شاء الله أن يكون بمدينة القاهرة ، و رغم أزمة المساكن، و الزحام الشديد بشوارعها ، و تقطع الأسباب بين أهلها ، حتى تشعر فى مكانك بأنك غريب دائما ، فما بالك و الشعور بالغربة و الإغتراب يملأ كل مسام رشوان.

و لكن زوجته أصيلة كانت تهون عليه كل صعب يقابله، و تزيح عنه كل هم يصيبه ، إنها إبنة عمه ، و قد تزوجها

عن قناعة كاملة ، فالبورسعيديون لا يتزوجون كغيرهم عن طرق الهوى و الغرام ، فلقد علمهم البحر بغدره ، أن الزوجة هى الدار و الإعمار ، فلا بد و أن يكون إختياره للمرأة التى ستفتح له داره ، عن دراسة و معرفة وثيقة بها وبأسرتها ، و من هنا حين فكر رشوان لم يبتعد بتفكيره عن نطاق من يعرف و يخالط ، و لقد كانت أصيله هى أنضج بنات العائلة ، و قد أشتهرت بين قريناتها بالتميز بالعقل والتأنى ، و هذا لم توافق على زواجها منه إلا بشروط ، وكان أول شرط لها أن يعيشا فى بورسعيد ، و أن يترك مهنة التدريس لو رأت وزارة التعليم أن يعمل خارج مدينتهم .

و لقد وافق رشوان على ذلك و هو مسرور بما إرتأت غاية السرور ، فها هى تعلن عن رجاحة عقلها ، ثم ها هى منذ البدء تعلن القتال من أجل إستمرار كيان أسرة " أبو حطيبة " فى مدينتهم قويا مهابا ، فالأسر فى بورسعيد تقاس بتعدادها ، و بتشبث أفرادها بالمدينة ، و بقدرتهم على

الإنتشـار و النمـو ، و هـى برجاحـة عقلهـا تـدرك أن كيـان زوجها لا يكون مهابا إلا إذا أحاطت به جماهير القبيلة ، فهـو فى مأمن بهم ، و هو فى عزة بتكاثرهم و إنتشارهم فـى كـل الأحياء ، أما إذا ما هجر المدينة إلى مكان آخـر ، فسـوف لا يكون له شأن كشأنه فيهـا ، ثـم إن بيتهـم جـاهز للسـكنى ، وهو قد بناه الأب رحمه الله ، و جعـل لكـل إبـن مـن الأبنـاء سكن خاص.

أما بعد أن هجروا من بورسعيد إلى القاهرة ، فلقد لجـأت أصيلة إلى زوج أختها فعاشا ببيته فترة طويلة قبـل أن ينتقلـوا إلى شـقة خاصـة بهـم إستأجروها فى حى المعـادى ، و فـى القاهرة إنتعشت حياتهم بعد أن عرف طريق الدروس الخاصة التى كان يتخير لها من بين تلاميذه الأغنياء فقط.

و حين عادوا بعد نصر اكتوبر إلى مدينتهم ، وجـد بيتهـم القديم قد دمرته القنابل ، و لكنه لم ييأس بل تشبث بالبقاء ،

و شجعته أصيلة على ذلك ، بل و باعت ما كانت تلبسه من ذهب ، و عاد البيت ليكون أحسن مما كان ، و توطدت العلاقات بينه و بين البورسعيدية من الذين رافقوه فى رحلة الإغتراب بالقاهرة ، فكانت يجمعهم مقهى " الحرية " كل ليلة ، و لقد كان الحديث لا ينقطع حول قرارات الرئيس السادات عن الإنفتاح الإقتصادى و عن محاولة الرئيس إنعاش المستوى المعيشى لسكان مدن قناة السويس تعويضا لهم عن سنوات الإغتراب ، و لمساعدتهم على المساهمة مع الدولة فى إعادة بناء ما دمرته الحرب .

و إنتهت الحوارات إلى أن الناس فى مصر فى غاية الشوق إلى ما حرموا منه من طعام و ملبس أثناء سنوات الجفاف ، و من هنا بدأت أنظارهم تتجه إلى ما تحمله السفن العابرة لمدينتهم من تفاح و ملابس و عطور و سجائر ، يبادلونها بالتحف المصرية و بالورود ، و أحيانا بالسجائر المحلية.

و بدأ رشوان يشارك في نشاط أصدقائه بما لديه من مـال إدخره بالقاهرة ، و يجنى ثمار تجـارتهم ، ثـم تسـاءلت أصيلـة ذات ليلة :

– و لماذا لا يكون لك متجرا و تجارة بإسمك ؟!.

و لم يطـل التفكـير بهم فـلقد كان مكان المتجـر موجـودا أسفـل سكنـهم ، و كان المطـلوب فقـط إتخـاذ الإجـراءات القـانونية ، و مـا أيسـرها ، ثـم يتـم التـأثيث ، و لقـد إختـار رشوان لمتجره إسم زوجته ، كما جعـل الملكيـة الرسميـة لها ، وجعـل لنفسـه حـق الإدارة ، و بهـذا حقـق هدفـين بخطـوة واحدة، حقق لزوجته سعادة كانت تستحقها ، و حقق لنفسه كمدرس له وضعه التربوى و الإجتماعي الحفاظ على مظـاهر الوظيفة، كما خفف الضرائب عن تجارته فيما إذا طولب بها.

و لقد نجحت تجارة أصيلة نجاحا بـاهرا ، حتـى لقـد وجـد رشـوان نفسـه أمـام خيـار سـهل : إمـا أن يتصـاعد نجاحـه

التجارى ، او يستقيل من عمله كناظر لمرسة بورسعيد الإعدادية ، و لم تطل المشاورات بينه و بين أصيلة ، و قرر رشوان أن يتفرغ للتجارة ، و بدأت الأموال تتكدس فى البنوك ، و بدأ النهم لإمتلاك المليون يطارد رشوان فقبل أن يسلك كل السبل ليستزيد من الربح ، فعمل فى تجارة الملابس المستعملة ، و كان يفرزها فى مخازنه ، و ينتقى الجيد منها و يبيعه لمتاجر القاهرة على كونه جديدا.

و يهمل رشوان بيته و أسرته ، و يصل الليل بالنهار فى عقد الصفقات ، و تفشل لواحظ فى إستكمال دراستها الثانوية ، و تفصل من مدرستها و تبقى بالبيت لتساعد أمها ، و لواحظ هذه هى إبنتهم البكرية ، و بلا مقدمات تسؤ صحة أصيلة ، و لا تستطيع إبنتها لواحظ أن تسعفها لقلة خبرتها وضآلة علمها ، كما و أن أصيلة لم تفصح بمرضها لرشوان تيسيرا عليه ، و تخفيفا من أعبائه ، فيكفيه ما هو عليه من كدح و رهق ، و يزداد مرضها سؤا ، و حين يستجيب

رشوان لصرخات إبنته المرعوبة ، تنطلق من أعلى المتجر حيث بيتهم ، تكون أصيلة قد دخلت فى مرحلة الإغماء ، فيحملها إلى المستشفى ، و هناك يعرف من الطبيب أنها تعانى من ضيق فى شريان القلب ، و أنه يجب إبعادها عن الإنفعلات الحادة ، و لكن كيف لهم هذا ، و ها قد وصلهم خطاب من الجامعة تخطرهم بقرار المجلس التأديبى الذى نص على فصل إبنهم جبر بسبب تصرف غير أخلاقى .

و تكون صدمة رشوان أشد حين يسافر إلى القاهرة ، ويسأل فيعرف أن إبنه الوحيد قد سرق نقود زملائه بالكلية، ليشترى بها مخدر ، و يعرف أيضا أن إبنه قد إختفى من مساكن الطلبة منذ أكثر من شهر.

: إبنك مختف منذ شهر و أنت لا تدرى يا رشوان ؟!.
شهر و هو من غير بيت و لا مال زو لا مأوى ، و أنت تكدس المال أكواما !!.

و يبدأ رشوان البحث عن إبنه ، و حين يعثر عليه يجده بقايا إنسان ، فملابسه رثة ، و عظامه تكاد تخرق جلده ، ولونه أكثر صفرة من وجوه الموتى ، فلقد هده الإدمان و الإهمال ، و في حرص بأن لا تعرف الأم بالأمر ، يعود رشوان بجبر إلى بورسعيد ، ويدخل ولده الوحيد مستشفى لعلاج الإدمان.

و لأن أصيلة أم ، تشعر بما جرى لإبنها حتى و إن لم تره أو تعرف به ، فلقد أضناها غياب جبر ، و حين ترى رشوان ساهما تروح تلح عليه بالسؤال ، راجية متوسلة:
ـ أين جبر يا رشوان ، أين إبنى ، لا تخفى عنى شئ ، أنا أم قلبى يحدثنى بأن جبر قد ضاع يا رشوان ، قل لى الحقيقة فهى أهون على من الصمت.

و لا يستطيع رشوان أن يكتم دموعه ، و ينهار ليخبرها بكل ما كان من أمر وحيدهما.

.. و يزداد مرض أصيلة ، و يقرر الطبيب ضرورة إجراء جراحة عاجلة لها ، و بعد أن تتم العملية ، و تخرج أصيلة إلى حجرة الإنعاش ، يتجه رشوان بسيارته إلى متجره لينهى بعض الأعمال ، و حين يستقر على مقعده ، يدخل عليه ساعى البريد و بيده إخطار من البنك بأن رصيد رشوان قد وصل للرقم : مليون .

و حين يمد يده إلى خزينة النقود ليعطى حامل البشارة هديته ، يرن جرس التليفون ، و يجيئه صوت لواحظ نائحا:

ـ ماما ماتت يا بابا.

و يسقط الإخطار من يد رشوان على الأرض و ينتابه إحساس يقينى بأن ما كونه من مال لا يساوى ما آلت إليه حياته ، و أن المليون لا يساوى أكثر من صفر.

للمؤلف تحت الطبع

طريـــق الغربـــة

(رواية)

المؤلف

* عبدالمجيد الشوادفى
* عضو نقابة الصحفيين
* مدير مكتب جريدة الأهرام بالشرقية
* رئيس تحرير جريدة البلاغ الدولية

رقم الإيداع : ٥٤٧١ / ٩٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N
977 - 00 - 9666 - 0

رشيد الذهبي
للطباعة
يسري حسين اسماعيل
٢ شارع عبد العزيز - الهدارة - عابدين
ت ٣٩١٠٠٧٥